سلسلة التفسير الأصوليّ

الكتاب الثالث

الأمة الوارثة

الاستخلاف والتمكين

د. محمد بن بشر القباطي

mhmdalqbty1@gmail.com

1442هـ-2021م

كوالالمبور

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة:

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على سيّد المرسلين، ربّي اشرح لي صدري ويسّر لي أمري، اللهمّ علّمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علّمتنا وزدنا علمًا، وبعد، فإني على يقين بأن ما تحتاج إليه الأمة من حلول لأزماتها ومشكلاتها في العبادة، والسيادة، والريادة للنهوض والتقدّم موجود بين دفتي المصحف، وأن دور المفسّر هو وضع المصحف بين يدي الناس؛ ليدّبّروا آياته بعد أن اتخذه كثير منهم ظهريّا.

وها أنا أنشر هذا التفسير منجّمًا بما تيسّر من الفوائد تأسِّيًا بنزوله منجّمًا؛ لينتفع به طلاب العلم، وهذا هو الكتاب الثالث من سلسلة التفسير الأصوليّ، وقد بيّنت فيه جوانب من مراسيم تنصيب الأمّة الوارثة إمامة للبشريّة، وتنحية الأمم الناكثة، سائلًا الله تعالى الهدى، والسداد، والإنعام، والإكرام، وأن يتقبل منّي هذا العمل بقبول حسن، وأن يمنّ علي بإتمام هذا التفسير إنه على كلّ شيء قدير.

اللهمّ علّمنا ما ينفعنا، وانفعنا بنا علّمتنا، وزدنا علمًا. والحمد لله رب العالمين.

كتبه: د. محمد بن عبده بن محمد بن بشر القباطي

كوالالمبور

30 رمضان 1442هـ

2021/5/12

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1].

لقد وبَّخت الآية السابقةُ اليهودَ لإعراضهم عن الإيمان والتقوى، وأثارت حسرتهم على ما فاتهم من مثوبة الله تعالى، وفتحت باب الرجاء الجميل لمن أراد الإنابة والمثوبة، فكان الإعراض عن المعرضين جزاء وفاقًا، وكان مناسبًا أن تُفتتح هذه الآيةُ بالإقبال الدالّ على الاستبدال، وقد بدأت بنهي المؤمنين عن مشابهة اليهود المتمرّدين على رسل الله تعالى، وكان النّهي عن الأدنى بمنطوقها، وعن الأعلى بمفهوم الموافقة (من باب أولى)، وأمرتهم بالسّمع الذي هو أصل أصول التلقِّي والاتباع، وأما تذييل الآية بالوعيد الشديد للكافرين، ففيه إشارة إلى أن عدم الامتثال لما طلبه الشارع في هذه الآية يفضي إلى اللحاق بزمرة الكافرين، والوقوع في الخسران المبين.

وهذا أول نداء اختصّ الله تعالى به المؤمنين، ورثة الدين القيِّم، وحملة الرسالة الخاتمة، فأنعم به نداءً! وأكرم به إقبالًا لا إعراض بعده! وما أجلّ هذا التزكية! وما أجملها! المنادي ربُّنا القريب المجيب الغفور الودود، والمنادَوْن المؤمنون، فأيُّ تشريفٍ هذا وأيّ تكليف!

يقف خلف هذا النداء صفٌّ مديد مجيد من النداءات الربّانية، هذا النداءُ إمامُها، ومُقَدَّمُها، فقد تكرّر هذا النداء في القرآن الكريم تسعين مرّة[2]،

---

[1] سورة البقرة آية (104)

[2] انظر: الجزائري، جابر بن موسى، نداءات الرحمن لأهل الإيمان، المكتبة العصريّة، بيروت، ط3، 1423ه، ص7، وقد عدّها الرازيّ في تفسيره ثمانية وثمانين، وتبعه في الخطأ الهرريّ في حدائق الروح والريحان ولم يشر إلى المصدر.

وآخر نداءين في هذا الصفّ المديد المجيد قد وردا في سورة التحريم: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾[3]، ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾[4]، فهل أدركت كيف اتسقت البداية والنهاية.

إن صلاح جهاز التلقّي (السمع والطاعة) هو الأصل؛ لإقامة الدين وعمارة الحياة به، ولما فسد جهاز التلقّي عند اليهود والنصارى سلبهم الله تعالى نعمة الخيريّة؛ لأنهم غير صالحين للاستخلاف ووراثة منهاج الأنبياء، فكان التغيير والاستبدال وفقَ سنة الله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾[5]، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[6].

إن هذا الإقبال الكريم من ربّ العالمين بهذا النداء المبارك في هذا الموطن ينشر بين أيدينا سِجِلًّا طويلًا عامرًا بالحِكَم والمقاصد والأسرار التي لا يتأتّى إدراكها إلا بإمعان النظر في الآية نفسها، وفيما سبقها وما تلاها من الآيات في سياقها القريب والبعيد؛ لأن لكلّ سورة وحدتها الموضوعيّة، ونظامها الخاصّ، كما أن للقرآن كلّه وحدته الموضوعيّة، ونظامَه المحكم، ومن تأمّل في مناسبة ورود (البسملة) في أول القرآن الكريم، وفي استفتاح القرآن بسورة (الفاتحة)، وختمه بالمعوِّذتين، وفي ورود أوّل قصة تذكر في المصحف (قصّة آدم)، وآخر قصّة، وتسلسل الأخبار والأحكام وامتدادها، ونظر في الأشباه والنظائر، والأصول، والفروع رأى آيات بيّنات بالغاتٍ

[3] سورة التحريم آية (6)

[4] سورة التحريم آية (8)

[5] سورة محمد آية (38)

[6] سورة الرعد آية (11)

المنتهى جلالًا وجمالًا وكمالًا، فسبحان الله القائل: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[7].

والناظر في كتب التفاسير يجد تفاوتًا في التوسُّع والتعمُّق في أسرار هذه الآية، وقد أعمل المفسرون أنظارهم، فمنهم من اكتفي بالآية دون التفات إلى سِبَاقِها (ما سبقها) أو لِحَاقِها (ما لحقها)، ومنهم من اقتصر على السِّياق القريب، ومنهم من مدَّ بصره في السِّباق، ولم يلتفت إلى اللحاق؛ حتى ربط النداءات الواردة في أول السورة بهذا النداء، ومن هؤلاء العلَّامة أبو حيان إذ يقول: "هذا أول خطاب خوطب به المؤمنون في هذه السورة، بالنداء الدالّ على الإقبال عليهم، وذلك أن أول نداء ورد في السورة أتى عامًّا: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ"، وثاني نداء أتى خاصًّا: "يَا بَنِي إسرائيل اذْكُرُوا"، وهي الطائفة العظيمة التي اشتملت على الملتين: اليهودية والنصرانية، وثالث نداءٍ لأمّة محمد – صلى الله عليه وسلم – المؤمنين، فكان أوّل نداء عامًّا أمروا فيه بأصل الإسلام، وهو عبادة الله، وثاني نداء ذُكّرُوا فيه بالنعم الجزيلة، وتُعِبّدُوا بالتكاليف الجليلة، وخُوّفوا من حلول النقم الوبيلة، وثالث نداء علِّموا فيه أدبًا من آداب الشريعة مع نبيهم، إذ قد حصلت لهم عبادة الله، والتذكير بالنعم، والتخويف من النقم، والاتعاظ بمن سبق من الأمم، فلم يبق إلّا ما أمروا به على سبيل التكميل، من تعظيم من كانت هدايتهم على يديه"[8]. والذي يظهر لي أن المعاني الواردة في منطوق الآية ومفهومها وتعليلها أوسع مما اقتصر عليه العلَّامة أبو حيَّان بقوله: "فلم

[7] سورة هود آية (1)

[8] أبو حيان، محمد بن يوسف، البحر المحيط، ت: صدقي محمد جميل، دار الفكر – بيروت، الطبعة: 1420 هـ ج1/ 373

يبق إلّا ما أمروا به على سبيل التكميل"، بل الآية جاءت على سبيل التأصيل والتكميل معًا؛ لأنها جمعت بين أسباب الثبات على الإيمان، والازدياد منه بمنطوقها ومفهومها، وبين الوقاية من الكفر والخسران بمنطوقها وتعليلها، فهي أصل لكلّ نداء خاصٍّ بالمؤمنين يجيء بعدها في القرآن كلّه.

قوله تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا" "الَّذِينَ" الموصول يعمّ المؤمنين الذين كانوا في عهد الرسول صلى الله عليه وسلَّم، "لَا تَقُولُوا رَاعِنَا" النهي عن قول: "راعنا" للتحريم، والنهي عن الأدنى بالمنطوق نهيٌ عن الأشدّ والأغلظ من باب أولى (بمفهوم الموافقة)، والأمر في قوله تعالى: "وَقُولُوا انْظُرْنَا" للوجوب، قال ابن جرير: نهى الله عز وجل المؤمنين أن يقولوا: "راعنا"، لما كان قول القائل: "راعنا" محتملا أن يكون بمعنى احفظنا ونحفظك، وارقبنا ونرقبك. من قول العرب بعضهم لبعض: "رعاك الله": بمعنى حفظك الله وكلأك – ومحتملا أن يكون بمعنى: أَرْعنا سمعك، من قولهم: "أرعيت سمعي إرعاء – أو راعيته – سمعي رِعاء أو مراعاة"، بمعنى: فرغته لسماع كلامه"[9]. وقال ابن عطيَّة: "كانت اليهود تصرفها إلى الرعونة، يظهرون أنهم يريدون المراعاة ويبطنون أنهم يريدون الرعونة التي هي الجهل"[10]. وقال ابن جزي: "فنهى الله المسلمين عن هذه الكلمة؛ لاشتراك معناها بين ما قصده المسلمون، وقصده اليهود، فالنهي سدّ للذريعة، وأمروا أن يقولوا: انظرنا، لخلوّه عن ذلك الاحتمال المذموم، فهو من النظر والانتظار، وقيل: إنما نهى الله

[9] الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج464/2

[10] ابن عطية، عبد الحق بن غالب، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1422ه، ج189/1

المسلمين عنها لما فيها من الجفاء وقلة التوقير"[11]. وقال السعدي: "فنهى الله المؤمنين عن هذه الكلمة، سدًّا لهذا الباب، ففيه النهي عن الجائز، إذا كان وسيلة إلى محرّم"[12].

"وَاسْمَعُوا": هذا الأمر عظيم الشأن، ومناسبة وروده في أول نداء ينادي الله تعالى به المؤمنين تهيئة الأسماع والقلوب لتلقّي ما يُلقَى عليها من الهدى، والأمر للوجوب، والسمع المأمور به هو سمعُ فهمٍ وتعقُّلٍ وانقياد وطاعة، قال ابن عطيَّة: "ولما نهى الله تعالى في هذه الآية وأمر، حضَّ بعدُ على السمع الذي في ضمنه الطاعة"[13]. وقد ذكره القرطبيُّ بنصِّه، ولم يعزُه إلى أحد[14]، وأما مفعول فعل الأمر: "اسمعوا" فلم يذكر؛ للدلالة على العموم أي: اسمعوا كلَّ ما يأتيكم به الرسول عليه الصلاة والسلام، "وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ": "لِلْكَافِرِينَ": صفة صريحة تعمّ؛ لاقترانها ب "أل"، وفيها إيماءٌ إلى أن الكفر بما جاءنا به رسول الله عليه الصلاة والسلام هو علَّة العذاب، والتذييل بهذه الجملة فيه تحذير شديد؛ فلا يغترّ المؤمنون فيكفروا كما اغترّ من سبقهم.

وقد اجتمع في هذه الآية التبشير والتحذير، والترغيب والترهيب، والرعاية والوقاية! ولو أن المؤمنين في هذا العصر امتثلوا ما أمروا به، فسمعوا ما جاءهم به الرسول عليه الصلاة والسلام وأطاعوا، ما لبثوا في الاستضعاف

---

[11] ابن جزي، محمد بن أحمد، التسهيل لعلوم التنزيل، المحقق: الدكتور عبد الله الخالد، دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت الطبعة: الأولى - 1416 هـ ج93/1

[12] السعديّ، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، مرجع سابق، ج61/1

[13] ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، مرجع سابق، ج189/1

[14] القرطبيّ، محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، ط2، 1384هـ - 1964 م، ج60/2

المهين، ولأضحوا قادة العالمين بلا منازع.

قال الله تعالى: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[15].

تسهم هذه الآية في درء مفاسد ضخمة سببها حسد الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ للأمة الوارثة، فإنها تكشف للمؤمنين ما تخفيه صدور أهل الكتاب والمشركين من العداوة؛ ليأخذوا حذرهم، ويستمسكوا بما يُنَزَّل عليهم من ربّهم، وحتى لا يوجس المؤمنون في نفوسهم خيفة، فقد جاء التعقيب شافيًا كافيًا بأسلوب الالتفات، والالتفات في هذا الموطن يشعّ فخامة وجلالًا ومهابة، إنه التفات من عالَم الشهادة حيث العبادُ الضعفاءُ في صراعٍ وتدافع وتنازع إلى عالَم الغيب الأعظم حيث عالِمُ الغيب والشهادة الحيُّ القيُّوم، القويّ القهَّار، فيعلمنا الله تعالى ويعلم الناس أجمعين أن تنزيل الخير والرحمة إنما هو اختصاص من الله تبارك جدّه، وإذا اختصّ أحدًا برحمة منه، فلا قدرة لأحد على الحيلولة دون نزولها، أو بلوغها محلّها، أو الانتقاص منها، ثمّ يزيدنا تطمينًا وتكريمًا وترغيبًا فيقول: "وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ" فلا يظنّنّ ظانّ أن الاختصاص إنما كان عن قلّة، كلّا، بل فضل الله عظيم لا يحدُّ، ولا يردُّ، فليستبشر المؤمنون بالفضل العظيم، ووصْفُ فضل الله تعالى بالعظمة يفيض على قلوب المؤمنين إكرامًا وإنعامًا، وبهجة، وحبورًا، وفيه إغاظة للحاسدين وتحقير.

[15] سورة البقرة آية (105)

وللقرآن الكريم منهج بديع في وصل المواضيع وفصلها، فتجده يصل ويفصل بأسلوب يملأ القلوب دهشة وتشويقًا، وجلالًا، وجمالًا. ولقد افتتح الله تعالى قصص القرآن الكريم بقصّة آدم عليه السلام صاحب التجربة الأولى في الاجتباء، وتلقِّي الهدى، والوقوع في الزلل، وإحداث التوبة، وما صاحب تلك التجربة من تنحية إبليس وفصله عن صفوف الملائكة، وإخراجه ممّا كان فيه من التقديم والتمكين؛ لما أظهره من العداوة والاستكبار والكفر، والكيد، ثمّ انتقل إلى دعوة بني إسرائيل أصحاب التجربة المديدة الفريدة بخيرها، وشرّها، وعبرها، وهي التجربة الأخيرة الأكثر تشعُّبًا وتفصيلًا، وفي ذكر قصصهم إثر قصّة أول متلقٍّ للهدى وصلٌ لمسار الدعوة المديد بالعهد الجديد، وتهيئة لفصل الدعيّ من الوارث، وتمييز الخبيث من الطيّب.

إن الأمّة التي أوتيت الكتاب، فطال عليها الأمدُ، فقست قلوبها لا تزال تزكّي نفسها، وتدّعي لنفسها حقّ الوراثة والاصطفاء والخيريّة على العالمين، وتعمل على تعزيز مكانتها وهيمنتها الدينية في جزيرة العرب، وفي المدينة على وجه الخصوص، وهم أخبث الناس أخلاقًا، وأشدّهم كفرًا ونفاقًا، وإفسادًا في الأرض، وعداوة للحقّ وأهله، فلهم مَثَل السَّوْء. وقد شاركهم في دعوى ميراث النبوة النصارى والمشركون من أهل الحرم خاصّة، فكان ضروريًّا أن يطاح بنُصُبُ هذه النماذج الخبيثة، وأن تقام الحجة عليهم جميعًا وأن يُبيَّن حالهم، ويُماط أذاهم عن طريق الدعوة الجديدة، وإن القارئ لتدْهَمُه الوُحْشةُ عند الوقوف على قبائح اليهود، وخبائث تلك النفوس الشاردة التي

تمقتها القلوب المؤمنة وتنفر منها، فيتساءل لِمَ فصَّل القرآن الكريم قصص هؤلاء القوم دون غيرهم؟ فإذا شاهد ما يجري على الأرض، وسمع أنباء أحفاد هؤلاء المجرمين، وهم يوظِّفون الساميّة والإبراهيميّة والموسويّة، والاختصاص الربّانيّ كذبًا وزورًا؛ لنهب الأمم، وإيقاد الحروب بين الشعوب، واستنزاف خيرات الأمم، شكر الله تعالى على أن بيَّن لنا هذا البيان؛ ليأخذ بحُجَزِنا؛ حتى لا نقع فيما وقعوا فيه، ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾[16]. ومع ذلك نرى فريقًا من المغفلين يتهافتون على أبوابهم استرضاء وموالاة. وسوف تمضي الآيات اللاحقة في تثبيت أقدام الأمة على الصراط المستقيم وتحصينها من سنن الهالكين، وتبيّن للعالمين شعائر الملّة الخاتمة، وترشدهم إلى اتباع إمام الأئمة ورائد الأُمة حفيد إبراهيم عليه السلام، وخاتم المرسلين عليهم الصلاة والسلام أجمعين، وتلاحق الطوائف الثلاث التي تدَّعي حقّ الوراثة والإمامة، فتهتك أستارهم، وتدحض حججهم، وتنبذهم بالعراء وهم صاغرون.

"مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ " "مَا يَوَدُّ" الفعل المضارع يدلّ على الحدوث المتجدّد غير المنقطع، والفعل في سياق النفي للعموم، "الذين": للعموم، "أهل": نكرة مضافة لمعرفة تعم، " الْمُشْرِكِينَ": صفة صريحة معرفة ب"أل" تعمّ، "مِنْ خَيْرٍ" نكرة في سياق النفي مسبوق بحرف الجرّ "من" للتنصيص على العموم، (النفي وإن لم يباشر الفعل السابق للنكرة فهو بقوّة المباشر)، "وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ": "رحمة" نكرة مضافة تعمّ، "من": موصول يعمّ،

[16] سورة الأنعام آية (55)

فليعلم الناس أجمعون أن الله تعالى إذا اختصّ أحدًا برحمة منه، فلا قدرة لأحد على الحيلولة دون نزولها أو بلوغها محلّها، أو الانتقاص منه، "وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ" "الْفَضْلِ" عامّ، ففضل الله عظيم، فليستبشر المؤمنون بالفضل العظيم وليطمئنّوا، واختصاص الله لبعض عباده دون بعض ليس عن قلّة، بل لحكمة بالغة عدلًا وفضلًا، ووصف فضل الله تعالى بالعظمة يفيض ترغيبًا وتحبيبًا وتقريبًا على قلوب المؤمنين، وفيه إغاظة للحاسدين، وليمت الكافرون بغيظهم كمدًا وحسدًا.

﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[17].

هذه الآية من الفضل العظيم الذي اختصّ الله تعالى به هذه الأمّةَ الأمّيّة، وقد جعل الله تعالى النسخ مسلكًا للاستبدال، فنسخ الشرائع السابقة باللاحقة، فهو بركة وخيرٌ للآخِرِين، وأسعدُ الناس بهذا المسلك المبارك محمّد صلى الله عبيه وسلم وأمّته، فنسخت شريعته الشرائع السابقة وما فيها من الآصار والأغلال، وقد أُنزل القرآن منجّمًا؛ ليواكب الحوادث، ويصلح نفوسهم بالتدريج، ويعالج أزماتهم ومشكلاتهم ومستجداتهم بالتي هي أقوم وأصلح، وقد شرع الله تعالى لنا كثيرًا من الأحكام بالتدرُّج، وكان النسخُ مسلكًا من مسالك التدرُّج والتجديد. ويدهشني حقًّا أنّ سورًا كثيرة من القرآن الكريم لم تكن قد اكتملت بعدُ آياتها؛ لأنها تتنزّل منجمّة شيئًا فشيئًا، وسورًا يجري فيها النسخ، فلا يختلُّ شيء من جلالها، وكمالها، وجمالها وإعجازها، وظلّ التحدّي بسورة من مثله غير مقيّد بسورة قد اكتملت آياتها. ونسخ آية أو آيات من القرآن الكريم والإتيان بخيرٍ منها أو مثلها مع بقاء القرآن الكريم آية معجزة دون أن يختل شيء منه، إن هذا الأمر لشيءٌ عظيم، عظيم من حيث هو فعل لا قدرة لأحدٍ من العباد عليه، ولو كان بعضهم لبعضٍ ظهيرًا، وعظيم من حيث الأثر على المؤمنين، لما للقرآن

[17] سورة البقرة آية (106)

المجيد في قلوب المؤمنين من منزلة رفيعة، فإن صلة القلوب بكلام علّام الغيوب صلة حبٍّ وتكريم وتعظيم، وقبول النسخ وانتزاع ما لتلك الآيات المنسوخة من التقديم والتكريم والتقديس يحتاج إلى عونٍ ربّانيّ، ولذا وردت هذه الآية بهذا الوعد العظيم بالإتيان بخير من الآية المنسوخة أو مثلها، وقد قرأ الصحابة آيات من السور التي عجز العالمون على الإتيان بمثلها، ثمّ أصبحوا وقد نسخها الله تعالى، وغدت غير معدودة من القرآن الكريم، فتلقَّوا الأمر بالتسليم، ولم ينقلب أحدٌ منهم على عقبيه، فإذا عرفت هذا المعنى أدركت جانبًا من الحكمة البالغة في نسخ الحكم وبقاء النظم في بعض المواطن. وقد وقفتُ متدبّرًا بين يدي هذه الآية؛ لأنها أول آية تصرّح بالنسخ في ترتيب المصحف، والنسخ من جلائل الأصول، فورودها في هذا السياق وبهذا النظم له شأن عظيم، وظهر لي بعض الفوائد بفضل الله تعالى ومَنِّه، وإليك شيئًا منها:

الأولى: أن ورود الخبر بالإتيان بخيرٍ من الآية المنسوخة أو المنساة أو مثلها بصيغة الشرط فيه وعدٌ بالتعويض من الله تعالى الذي لا يخلف الميعاد، وفي هذا لطف من الله تعالى، ورحمة، وإيناس، وتطمين لقلوب المؤمنين بالتعويض عمّا يفقدونه من ذلك الخير.

الثانية: استعمال أسلوب المعظِّم نفسَه فيه إشارة إلى أن نسخ كلام الله تعالى شيء عظيم، فقال: ننسخْ، ونأتِ ولم يقل أنسخ وآتِ.

الثالثة: توجيه ظاهر الخطاب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فيه توكيد على أن النسخ من أمر الله تعالى وحده لا يشاركه فيه أحدٌ غيره، فلا يظنّ أحدٌ أنه من فعل الرسول صلى الله عليه وسلم.

الرابعة: ختمُ الآية بوصف الله تعالى نفسَه بالقدرة على كلّ شيء يناسب عظمة هذا النبأ.

الخامسة: تعليم الأمة أصول تشريعها المبارك عاصمٌ من الفتن والقواصم.

السادسة: ومن وجوه المناسبة في سياق هذه الآية أنها وردت بعد أن كَشفَ اللهُ تعالى للمؤمنين ما يُكِنُّه لهم أهل الكتاب والمشركين من كراهة نزول الخير عليهم، فكشف الغطاء عن قلوب أعدائهم؛ ليستمسكوا بما يُنزَّل عليهم، وليأخذوا حذرهم من كيد أهل الكتاب وتزويرهم الحقائق وإثارة الشبهات والشكوك، وقد بيّن الله تعالى أنه يختصّ برحمته من يشاء، وأنه ذو الفضل العظيم، فتبيّن لنا أن النسخ والإنساء إلى خيرٍ أو مثلٍ هو من اختصاص الله تعالى ومن فضله العظيم على المؤمنين، وخاتمة هذه الآية متوافقة مع مطلع الآية التي تليها كما سنبيّنه في موضعه إن شاء الله تعالى.

"مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا": "ما" اسم شرط يعمّ، قال الإمام الطبريّ: "يعني جل ثناؤه بقوله:(مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ): ما ننقل من حكم آية، إلى غيره فنبدله ونغيره، ولا يكون ذلك إلا في الأمر والنهي، والحظر والإطلاق، والمنع والإباحة. فأما الأخبار، فلا يكون فيها ناسخ ولا منسوخ"[18]. وقال ابن جزي: "أَوْ نُنْسِها من النسيان، وهو ضدّ

[18] الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج2/471-472

الـــذكر: أي ينســـاها النـــبي صـــلّى الله عليـــه والـــه وســـلّم بإذن الله كقولـــه ﴿سَـنُقْرِئُكَ فَـلا تَنْسـى إِلَّا مـا شـاءَ اللَّهُ﴾[19]، أو بمعـنى الـترك: أي نتركهـا غـير منسوخة، وقرئ بالهمز بمعنى التأخير: أن نؤخر إنزالها أو نسخها"[20]، "نَـأْتِ بِخَيْـرٍ مِنْهَـا أَوْ مِثْلِهَـا" أي: بـأنفع منهـا وأصـلح للمكلفين[21]، وقـال الشـــنقيطي: إن فيهـــا "إشـــكالاً مـــن جهتـــين: الأولـى: أن يقـال: إمـا أن يكـون الأثقـل خيـراً مـن الأخـف؛ لأنـه أكثـر أجـراً، أو الأخـف خيـر مـن الأثقل؛ لأنه أسهل منه وأقرب إلى القـدرة علـى الامتثـال. وكـون الأثقـل خـيراً يقتضـي منـع نسـخه بالأخـف، كمـا أن كـون الأخـف خـيراً يقتضـي منـع نسـخه بالأثقـل؛ لأن الله صـرح بأنـه يأتي بما هـو خـير مـن المنسـوخ أو مماثـل لـه، لا مـا هـو دونـه. وقـد عرفـت: أن الواقـع جواز نسخ كل منهما بالآخر.

الجهـة الثانيـة مـن جهـتي الإشـكال في قولـه: "أَوْ مِثْلِهَـا"؛ لأنـه يقـال: مـا الحكمـة في نسـخ المثـل ليبـدل منـه مثلـه؟ وأي مزيـة للمثـل علـى المثـل حـتى ينسخ ويبدل منه؟

والجـواب عـن الإشـكال الأول: هـو أن الخيريـة تارة تكـون في الأثقـل لكثـرة الأجـر، وذلـك فيمـا إذا كـان الأجـر كثيراً جـداً والامتثـال غـير شـديد الصـعوبة؛ كنسـخ التخيـير بـين الإطعـام والصـوم بإيجـاب الصـوم؛ فـإن في الصـوم أجـراً كثـيراً كمـا في الحـديث القدسـي: "إلا الصـوم فإنـه لي وأنا أجـزي بـه"، والصـائمون مـن خيـار الصـابرين؛ لأنهـم صـبروا لله عـن شـهوة بطـونهم

[19] سورة الأعلى آية (6-7)

[20] ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل، مرجع سابق، ج93/1

[21] انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ج288/1 بتصرف يسير.

وفروجهم؛ والله يقول: "إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ"، ومشقة الصوم عادية ليس فيها صعوبة شديدة تكون مظنة لعدم القدرة على الامتثال، وإن عرض ما يقتضي ذلك كمرض أو سفر؛ فالتسهيل برخصة الإفطار منصوص بقوله: "فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ" وتارة تكون الخيرية في الأخف، وذلك فيما إذا كان الأثقل المنسوخ شديد الصعوبة بحيث يعسر فيه الامتثال؛ فإن الأخف يكون خيراً منه، لأن مظنة عدم الامتثال تعرض المكلف للوقوع فيما لا يرضي الله، وذلك كقوله: "وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَو تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ"، فلو لم تنسخ المحاسبة بخطرات القلوب لكان الامتثال صعباً جداً، شاقاً على النفوس، لا يكاد يسلم من الإخلال به إلا من سلمه الله تعالى، فلا شك أن نسخ ذلك بقوله: "لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا"، خير للمكلف من بقاء ذلك الحكم الشاق، وهكذا.

والجواب عن الإشكال الثاني: هو أن قوله "أَوْ مِثْلِهَا"، يراد به مماثلة الناسخ والمنسوخ في حد ذاتيهما؛ فلا ينافي أن يكون الناسخ يستلزم فوائد خارجة عن ذاته يكون بها خيراً من المنسوخ، فيكون باعتبار ذاته مماثلاً للمنسوخ، وباعتبار ما يستلزمه من الفوائد التي لا توجد في المنسوخ خيراً من المنسوخ.

وإيضاحه: أن عامة المفسرين يمثلون لقوله: "أَوْ مِثْلِهَا"، بنسخ استقبال بيت المقدس باستقبال بيت الله الحرام؛ فإن هذا الناسخ والمنسوخ بالنظر إلى ذاتيهما متماثلان؛ لأن كل واحد منهما جهة من الجهات، وهي في حقيقة

أنفسها متساوية، فلا ينافي أن يكون الناسخ مشتملاً على حكم خارجة عن ذاته تصيِّره خيراً من المنسوخ بذلك الاعتبار. فإن استقبال بيت الله الحرام تلزمه نتائج متعددة مشار لها في القرآن ليست موجودة في استقبال بيت المقدس"[22]. وأضيف في الجواب على أصل الإشكال الذي طرحه العلّامة الشنقيطي بقوله: "ما الحكمة في نسخ المثل ليبدل منه مثله؟ وأي مزية للمثل على المثل حتى ينسخ ويبدل منه"[23]؟ أقول: قد ذكر الله تعالى شيئين: الإتيان بما هو خيرٌ من المنسوخ، أو الإتيان بمثله، والمماثلة إما أن تكون من كلّ وجه أو من وجهٍ دون وجهٍ، فإن حملناه على المماثلة من كلّ وجه أفضى إلى الإتيان بالشيء نفسه، وهذا مفضٍ إلى انتفاء النسخ من أصله، وعليه فلا بد من حمله على أقرب ما يصحّ معه القول: بالمماثلة كالقول بالمماثلة في الأصل، والاختلاف في المتعلقات، وأما فوائد ذكر المماثلة بعد المفاضلة، فكثيرة، منها:

– بيان قدرة الله تعالى على الإتيان بما هو خير من المنسوخ وبمثله دون أن يتغيَّر إعجاز السور وإحكامها.

– سدّ باب المجادلة، فلو اقتصر على ذكر ما هو خير، لنفى بعض المجادلين الفروق بين الناسخ والمنسوخ، فيزعمون أن الله تعالى قد قال: إنه سيأتي بخيرٍ من المنسوخ، وإنما أتى بمثله.

[22] الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، مرجع سابق، ج2/449-450

[23] الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، مرجع سابق، ج2/449

"أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" "أَلَمْ تَعْلَمْ": الاستفهام للتقرير، والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم والمراد عمومُ أمّته؛ لأن رسول الله تعالى مقرّ قطعًا بهذا الأمر، وفي إفراد الخطاب إشارة إلى أن النسخ من أمر الله تعالى، والرسول عليه الصلاة والسلام مبلِّغٍ عن ربّه، قال العلّامة ابن عاشور: "وإما مرادٌ به ظاهرُه وهو الواحد فيكون المخاطب هو النبيّ صلى الله عليه وسلم لكن المقصود منه المسلمون فينتقل من خطاب النبيّ إلى مخاطبة أمته انتقالا كنائيّا، وإنما سلك هذا الطريق دون أن يؤتى بضمير الجماعة المخاطبين لما في سلوك طريق الكناية من البلاغة والمبالغة مع الإيجاز في لفظ الضمير"[24].

"كلّ": عامّ، قدير على شيء شرعيّ وكونيّ، وهذه الخاتمة موافقة لمضمون الآية، فالله تعالى قدير على النسخ والإنساء، والإتيان بالخير والمثل مع الحفاظ على جلال القرآن وكماله وجماله وإعجازه، ولا يقدر على ذلك إلا الله تعالى، كما أن هذا التعقيب متصل بمطلع الآية التي تليها: "أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ"؛ لأن من له الملك كلّه فله حقّ التصرُّف والتدبير والتشريع كلّه.

[24] ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج665/1 بتصرُّف.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[25].

في هذه الآية تعظيم الله تعالى وبيان ملكه وسلطانه، وتوثيق لصلة المؤمنين بربّهم مالك الملك الذي له الخلق والأمر، القدير، الوليّ النصير، ففيها إحاطة لهم بالعناية من كلّ وجه؛ ليسلم المؤمنون وجوههم لله تعالى وحده محسنين راضين بحكمه وتقديره، فلا يلتفتون إلى مضلّ أو مبطل. وفيها قطع لكلّ ذرائع الزيغ، وسدٌّ لمداخل شياطين الإنس والجنّ؛ وتهديد ووعيد لكلّ من تسوّل له نفسه بتخطّي حدود ما أنزل الله تعالى.

ومطلع الآية "أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ"، متصل بخاتمة الآية السابقة، قال ابن عاشور في قوله تعالى: "أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ" "هاته الجملة بمنزلة التكرير للأولى"[26]. والذي يبدو لي أنها مؤسّسة وليست مؤكّدة، مسوقة لتقرير حقيقة التفرُّد بالملك والسلطان وما يتبعه من استحقاق في التصرُّف والتشريع إحكامًا وتبديلًا.

"أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ" أَلَمْ تَعْلَمْ": الاستفهام للتقرير، "ملك": نكرة مضافة تعمّ، "وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ" "مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ" "ما" نافية، و"من" للتنصيص على عموم وليّ ونصير؛ لأهما نكرتان في سياق النفي.

---

[25] سورة البقرة آية (107)

[26] ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج1/664-665

وقد بيّن الإمام الطبريّ معنى الآية بيانًا شافيًا، فقال: "ألم تعلم يا محمد أن لي ملك السماوات والأرض وسلطانهما دون غيري، أحكم فيهما وفيما فيهما ما أشاء، وآمر فيهما وفيما فيهما بما أشاء، وأنهى عما أشاء، وأنسخ وأبدل وأغير من أحكامي التي أحكم بها في عبادي ما أشاء إذا أشاء، وأقر منها ما أشاء؟ وهذا الخبر وإن كان من الله عز وجل خطابًا لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم على وجه الخبر عن عظمته، فإنه منه جل ثناؤه تكذيب لليهود الذين أنكروا نسخ أحكام التوراة، وجحدوا نبوة عيسى، وأنكروا محمدًا صلى الله عليه وسلم، لمجيئهما بما جاءا به من عند الله بتغيير ما غير الله من حكم التوراة. فأخبرهم الله أن له ملك السماوات والأرض وسلطانهما، فإن الخلق أهل مملكته وطاعته، عليهم السمع له والطاعة لأمره ونهيه، وأن له أمرَهم بما شاء ونهيَهم عما شاء، ونسخ ما شاء، وإقرار ما شاء، وإنساء ما شاء من أحكامه وأمره ونهيه. ثم قال لنبيه صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين معه: انقادوا لأمري، وانتهوا إلى طاعتي فيما أنسخ، وفيما أترك فلا أنسخ من أحكامي وحدودي وفرائضي، ولا يهولنّكم خلاف مخالف لكم في أمري ونهيي وناسخي ومنسوخي، فإنه لا قيم بأمركم سواي، ولا ناصر لكم غيري، وأنا المنفرد بولايتكم، والدفاع عنكم، والمتوحد بنصرتكم بعزي وسلطاني وقوتي على من ناوأكم وحادكم، ونصب حرب العداوة بينه وبينكم"[27].

[27] الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج488/2

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾[28].

إن للتمكين سُننًا، وللأخذ والمؤاخذة وانتزاع الملك والإمامة والسيادة سننًا، وقد بيَّنّا قبلُ سنةَ الله تعالى فيما يترتّب على الإيمان والتقوى من المثوبة وفتح البركات، فكانت تلك السنة للترغيب والتبشير تفتح باب الرجاء على مصراعيه لمن أراد الهدى والفلاح، وفي هذه الآية يبيّن الله تعالى سنّة جليلة للوقاية والترهيب والتحذير، يخوّف الله تعالى بها عباده، "وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ"، فهذه السنة تبيّن عاقبة الردّة والانقلاب على الأعقاب.

وقد اتخذ بعض بني إسرائيل الأسئلة ذرائع للتمرُّد والشقاق، ولا يزال اليهود يتوارثون هذه الوسائل والأساليب؛ ليصدوا عن سبيل الله تعالى. والأسئلة من أنفع وسائل التعلُّم، وإنما يحرم منها ما اتخذ ذرائعَ إلى التمرُّد والكفر؛ لأن الوسائل بمقاصدها، ولذا قيّد الله تعالى السؤال المحذور بكونه كما سئل موسى عليه الصلاة والسلام.

وما تزال الآيات تتوالى في سياق واحد؛ لترسيخ منهج التلقِّي واتباع الرسول عليه الصلاة والسلام تعليمًا للمؤمنين وتكريمًا، وتمكينًا لهم وتحصينًا، وإفساحًا لمن يريد الهداية والدخول في جماعتهم، فظاهر الآية تحذير المؤمنين ووقايتهم من الضلال واتباع سَنَن المغضوب عليهم الذين

[28] سورة البقرة آية (108)

اتخـذوا الوسـائل النافعـة مسـالك إلى المقاصـد الفاسـدة، وباطنهـا التعـريض باليهـود الـذين تمـرّدوا علـى موسـى عليـه السـلام، ومـردوا علـى مشـاقّة المرسـلين علـيهم الصـلاة والسـلام، وقـد حقّقـت الآيـة بهـذا الأسـلوب مقاصد منها:

-تثبيـت أقـدام المـؤمنين علـى الصـراط المسـتقيم، ووقـايتهم شـرّ الضـلال والانقـلاب علـى الأعقـاب، ورفـع مكـانتهم، وتقـديمهم لإمامـة العـالمين فهـم ورثة الأنبياء عليهم السلام.

- توطئـة السـبيل للـراغبين في الإسـلام، وتبصـيرهم بالمسـالك المشـروعة والممنوعة في سؤال الرسول عليه الصلاة والسلام والتلقِّي منه.

-كشـف خبائـث اليهـود أدعيـاء مـيراث النبـوّة؛ لوضـعهم في الـدَّرْك الـذي يسـتحقونه، وتنحيـتهم عـن طريـق الهدايـة والإمامـة؛ لأن تنحيـة المجـرمين وإزاحـتهم مقصـد شـرعيّ في كـلّ عصـر، وإن انتسـبوا إلى الـدين زورًا وغـرورًا. فـإن الـدين مبـنيّ علـى حسـن الاتبـاع لا علـى التشـهّي والابتـداع، وكمـا جـرت هـذه السـنّة علـى اليهـود فإنهـا جاريـة علـى المسـلمين وغـيرهم، ومـا أكثـر الضـالّين المضـلين الـذين يصـدّون عـن سـبيل الله تعـالى، ويبغونهـا عوجًـا في بـلاد الإسـلام ممّـن اتبعـوا خطـوات اليهـود، فابتـدعوا، وادَّعـوا حـقّ الولايـة والوصـاية والسـيادة بالباطـل، وممّـن تمـرَّدوا علـى الهـدى فطعنـوا في حقـائق القـرآن الكـريم والسـنّة، ونبـذوا الـدين وراء ظهـورهم، وسِـجِلُّ أسئلتهم وطعونهم وأهوائهم طويل عريض.

"أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ"، وأمْ هي المنقطعة، وتقدَّر ببل والهمزة، فهي للإضراب الانتقالي من قصّةٍ إلى أخرى، والخطاب للمؤمنين، "رَسُولَكُمْ" محمّد صلى الله عليه وسلّم، "كَمَا سُئِلَ" "ما" مصدرية، والمصدر المنسبك من صيغ العموم، والمراد به خاصّ، فالأسئلة المنهيّ عنها هي أسئلة التعنُّت والشقاق.

"وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ" "مَنْ": اسم شرط يعمّ، "الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ": "أل" فيهما للعهد الشرعي، فهما حقيقتان شرعيّتان. وهذه سنّة ثابتة، فالإيمان والكفر لا يخضعان للموازين الأرضيّة من المال والنسب والجاه، فمن لم يسرع به عمله لم يسرع به نسبه، ومن ينقلب على عقبيه، فلن يضرّ الله شيئًا، بل يضرّ نفسه. قال الإمام الطبريّ: "وفي قوله: "وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ" أعلمهم الله تعالى أن اليهود أهل غشّ لهم وحسد وبغي، وأنهم يتمنون لهم المكاره، ويبغونهم الغوائل، ونهاهم أن ينتصحوهم، وأخبرهم أن من ارتدّ منهم عن دينه فاستبدل بإيمانه كفرًا، فقد أخطأ قصد السبيل"[29].

[29] الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج488/2 بتصرّف يسير.

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[30].

هذه الآية عامرة بتزكية المؤمنين، وتطمينهم على سلامة دينهم، وتبشيرهم بالتمكين، وفشل أعدائهم.

لقد حذّر الله تعالى المؤمنين من تبدُّل الكفر بالإيمان في الآية السابقة، وفي هذه الآية يصف ربنا عزّ وجلّ الجماعة المسلمة بصفة الإيمان، ويعلمهم بأن ما هم عليه من الإيمان قد أثار حسد كثيرٍ من أهل الكتاب؛ حتى ودّوا لو يردونهم كفارًا، وفي هذا تنبيه على الاستمرار في الحذر من كلّ ما يبثّه أهل الكتاب من الشبهات والأباطيل للطعن في الإسلام. ومع ذلك فقد سلكت الآية بالمؤمنين مسلك العفو والصفح في تلك الظروف؛ لأن في العفو والصفح تيسيرًا للدعوة الجديدة؛ حتى تبلغ غايتها في إقامة الحجة وإبانة المحجّة، وقد قيّد الأمر بالعفو والصفح بغاية، وهي: "حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ"، فينسخ هذا الحكم بما يتوافق مع الأحوال المستقبَلة والوقائع المستجدّة، وفي هذا تبشير للمؤمنين بالتمكين، وترهيب لأهل الكتاب من التمادي في طغيانهم اغترارًا بما يرونه من عفو المؤمنين وصفحهم عنهم.

قال الإمام الطبريّ: "وقد صرح هذا القول من قول الله جل ثناؤه، بأن

[30] سورة البقرة آية (109)

خطابه بجميع هذه الآيات من قوله:"يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا" وإن صرف في نفسه الكلام إلى خطاب النبي صلى الله عليه وسلم، إنما هو خطاب منه للمؤمنين من أصحابه، وعتاب منه لهم، ونهي عن انتصاح اليهود ونظرائهم من أهل الشرك وقبول آرائهم في شيء من أمور دينهم – ودليل على أنهم كانوا استعملوا أو من استعمل منهم في خطابه ومسألته رسول الله صلى الله عليه وسلم الجفاء، وما لم يكن له استعماله معه، تأسيًا باليهود في ذلك أو ببعضهم. فقال لهم ربهم ناهيا عن استعمال ذلك: لا تقولوا لنبيكم صلى الله عليه وسلم كما تقول له اليهود: "راعنا"، تأسيا منكم بهم، ولكن قولوا: "انظرنا واسمعوا"، فإن أذى رسول الله صلى الله عليه وسلم كفر بي، وجحود لحقي الواجب لي عليكم في تعظيمه وتوقيره، ولمن كفر بي عذاب أليم، فإن اليهود والمشركين ما يودون أن ينزل عليكم من خير من ربكم، ولكن كثيرًا منهم ودوا أنهم يردونكم من بعد إيمانكم كفارا، حسدا من عند أنفسهم لكم ولنبيكم محمد صلى الله عليه وسلم، من بعد ما تبين لهم الحق في أمر محمد، وأنه نبي إليهم وإلى خلقي كافة"[31]. أقول: فيما ذهب إليه الإمام لفتات مهمّة، منها أن الآيات ينتظمها سلك واحد، فهي تخاطب المؤمنين، وكذلك يظهر فيها تحذير المؤمنين من اتباع سنن أعدائهم، وأما كونها وردت عتابًا على مكروه سلف من المؤمنين، وحصر السبب والباعث في هذا العتاب فليس بظاهر، وإن صحّ سبب النزول، فلا تعارض بين خصوص السبب وبين عموم الآيات، فإن في عموم الآيات ودلالة السياق تأسيسًا ظاهرًا لمنهج الأمة الوارثة؛ لتحقيق جملة من

[31] الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج2/ 499

المقاصد، منها:

الأول: بيان أصل التلقّي والاتباع؛ لتمكين المؤمنين، وتثبيت أقدامهم على الصراط المستقيم، وإعلاء لوائهم، ورفع مكانتهم، وتحصينهم من مسالك الزيغ والضلال؛ ليتصدروا ركب الحضارة، ويقودوا العالمين إلى الخير والرشاد، فهم ورثة ملّة إبراهيم عليه السلام.

الثاني: كشف ضلال اليهود والنصارى والمشركين أدعياء ميراث إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام وإسقاط هيمنتهم، وتنحيتهم عن مواقع الصدارة التي ورثوها، واستغلوها في تحقيق أهوائهم وأطماعهم وشهواتهم باسم الدين والحقّ الموروث.

الثالث: التحذير من الانقلاب على الأعقاب، وتبدُّل الكفر بالإيمان.

الرابع: إفساح سبيل الهداية للعالمين، وإماطة أذى المبطلين عن طريق الحقّ.

"وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ" "من" للتبعيض، "أهل": نكرة مضافة تعمّ، "الكتاب" التوراة والإنجيل، "لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ" "إِيمَانِكُمْ": بدين محمد صلى الله عليه وسلم، "حسدا": للتعليل، "مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ" " فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا" أمران للوجوب، "حتى" حرف غاية " حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ" تخصيص بالغاية، وَالْأَمْرُ فِي قَوْلِهِ "بِأَمْرِهِ" قال الشنقيطي: "قال بعض العلماء: هو واحد الأوامر، وقال بعضهم: هو واحد الأمور فعلى القول الأول بأنه الأمر الذي هو ضد النهي، فإن الأمر المذكور، هو المصرح به في

قوله: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾[32].

وعلى القول بأنه واحد الأمور، فهو ما صرح الله به في الآيات الدالة على ما أوقع باليهود من القتل والتشريد كقوله: ﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ﴾[33]، إلى غير ذلك من الآيات"[34]. "بأمره" أمر نكرة مضافة تعمّ كلَّ أمر شرعيّ وكونيّ، ولكن السياق يرجّح أنه من العامّ المراد به الخاصّ، فالمقصود بأمره الناسخ للعفو والصفح، والله تعالى أعلم، ولا مانع من حمله على المعنيين إن لم يتعارضا.

وأما "إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" "كلّ" للعموم. وهذه الآية تدلّ بدلالة الإشارة على أن الصحابة قد استوعبوا منهج النسخ، وفقهوا مقاصده. **وثمّ تناسب ظاهر بين خاتمة آية النسخ وهذه الآية.**

فائدة:

قال الزُّبيديّ في تاج العروس في التفريق بين الأمر الشرعيّ والكونيّ باختلافهما في صيغة الجمع: "وَقد وَقَعَ فِي مُصَنَّفات الأُصُول الفَرْقُ فِي

---

[32] سورة التوبة آية (29)

[33] سورة الحشر آية (2-3)

[34] الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، مرجع سابق، ج42/1

الجَمع، فَقَالُوا: الأَمر إِذا كَانَ بمعنَى ضِدِّ النَّهْي فجمعُه "أَوَامِرُ، وإِذا كَانَ بمعنَى الشَّأْنِ فجمعُه" أمُور، وَعَلِيهِ أَكثُر الفُقَهاء، وَهُوَ الجارِي فِي أَلْسِنَة الأَقوام.

وحقَّق شيخُنَا فِي بعض الحَوَاشِي الأُصولِيَّة مَا نصّه: اخْتلفُوا فِي واحدِ أُمورٍ وأوامِرَ؛ فَقَالَ الأُصوليُّون: إِنّ "الأَمرَ بمعنَى القولِ المخصَّصِ يُجمَع على أَوامِرَ، وبمعنَى الفِعْلِ أَو الشأْن يُجمَع على أُمُورٍ، وَلَا يعْرَف مَن وافقَهم إِلا الجوهريّ فِي قَوْله: أَمَرَه بِكَذَا أَمْراً وجمعُه أَوامِرُ، وأَما الأَزهريُّ فإِنه قَالَ: الأَمْرُ ضِدُّ النَّهْيِ واحدُ الأُمُور. وَفِي المحكَم: لَا يُجمَع الأَمرُ إِلّا على أُمور، وَلم يَذْكُر أَحدٌ من النُّحاة أَنَّ فَعْلاً يُجمَع على فَوَاعِلَ، أَو أَنَّ شَيْئا مِن الثُّلاثِيَّاتِ يُجْمَع على فَوَاعِلَ، ثمَّ نَقَلَ شيخُنَا عَن شرح البُرْهَان كلَاما يَنْبَغِي التَّأَمُّلُ فِيهِ.

وَفِي المِصباح: جَمْعُ الأَمْرِ أَوامرُ، هكذا يَتكلَّم بِهِ النَّاس، ومِن الأَئِمَّةِ مَنْ يُصحِّحه وَيَقُول فِي تَأْوِيله: إِنّ الأَمْرَ مَأْمُورٌ بِهِ، ثمَّ حُوِّلَ المفعولُ إِلى فَاعل، كَمَا قيل أَمْرٌ عارِفٌ وأَصلُه معرُوفٌ، وعيشةٌ راضيةٌ وأَصلُه مَرْضِيَّة، إِلى غير ذَلِك، ثمَّ جُمِع فاعلٌ على فَوَاعِلَ، فأَوامِرُ جمعُ مأْمورٍ. وبعضُهُم يَقُول: جُمِعَ على أَوامِرَ فَرْقاً بَينه وَبَين الأَمْرِ بمعْنَى الحالِ، فإِنه يُجمَع على فُعُول"[35].

[35] الزَّبيدي، محمّد بن محمّد، تاج العروس من جواهر القاموس، مجموعة من المحققين، دار الهداية، بلا تاريخ ج69/10

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[36].

لقد هدى الله تعالى أمةَ الإسلام إلى طريق الصلاح، والنصر، والتمكين في الدنيا، والفوز والفلاح في الآخرة، وقد أمر الله تعالى المؤمنين في هذه الآية بالاستمرار والدوام على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وهاتان الشعيرتان هما جناحا الاستخلاف والتعمير، فالصلاة عمود الدين، ومن ثمارها ومنافعها المتعدِّية العاجلة النهي عن الفحشاء والمنكر، وأما الزكاة فثمرة التنمية الاقتصاديّة التي هي عمود المعيشة، فكلّما زاد النشاط الماليّ زادت مصادر الزكاة، فالأمر بالزكاة يستلزم الترغيب في الاستثمار والإنتاج وتكثير مصادر الزكاة، ومن آثارها العاجلة سدّ الحاجات، وتفريج الكربات، وتقوية أواصر الائتلاف بين أبناء الأمّة المسلمة، وغيرها من المصالح، ولما كان ثواب الآخرة هو غاية الغايات، ومقصد المقاصد، فقد جاء الوعد الصادق بحفظ كلّ ما يقدِّمه المؤمنون لأخراهم؛ لأن الدنيا مهما ازَّيَّنت، وطابت، وطالت، واتسعت، فلا تفي خيراتها بمجازاة عبدٍ واحد من عباد الله الصالحين. وما أبلغ التوافق بين قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آَمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[37]، وهي الآية التي ختم بها مجادلة الأمّة الناكثة للعهد

[36] سورة البقرة آية (110)

[37] سورة البقرة آية (103)

الناقضة للميثاق (اليهود)، الآية التي ورد بعدها مباشرة أول نداء للمؤمنين بوصفهم الخاصّ، وبين هذه الآية التي ختم بها التشريعات المؤسسة لبناء الأمّة الوارثة المستخلفة أمّة محمّد عليه الصلاة والسلام، "وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ". إن سنّة الله تعالى في العباد واحدة، ومنهجه واحد، والمثوبة مدّخرة عند الله تعالى الكريم الوهّاب، فمثوبة الله وحدها هي التي تتسع لتكريم كلّ من آمن واتّقى.

"وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ": أمران للوجوب، و"الصلاة والزكاة" حقيقتان شرعيتان، و"أل" فيهما للعموم العرفيّ، "وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ" "مَا" شرطية تعمّ، " لِأَنْفُسِكُمْ" نكرة مضافة تعمّ، "خَيْرٍ" نكرة في سياق الشرط تعمّ كلّ خير، قال الإمام الطبريّ: "ومهما تعملوا من عمل صالح في أيام حياتكم، فتقدموه قبل وفاتكم ذخرًا لأنفسكم في معادكم، تجدوا ثوابه عند ربكم يوم القيامة، فيجازيكم به. و"الخير" هو العمل الذي يرضاه الله"[38]. "إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ" "ما" اسم موصول يعم، ويجوز أن تكون مصدريّة، والمصدر المؤول يعمّ، تقديره: والله بصير بعملكم كلّه، وكفى به حسيبًا.

[38] الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج2/ 499

﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[39].

ما أشنع قول أهل الكتاب! وما أبشع سفههم! أيقولون ما يقولون وقد تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ؟ إن العقيدة الصحيحة لا تبنى إلا على أصول وبراهين راسخة، ولا تقبل الدعاوى الباطلة، وفي هذه الآية أصول علميّة جامعة، منها:

– الأول: المطالبة بالبرهان والحجة على الدعاوى، قال تعالى: "قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ"، وهذا أصل عامّ يتكرَّر ذكره في القرآن الكريم؛ لأن البراهين هي الركن الركين والأصل المتين لبناء العقل الصحيح، والقلب السليم، وهي السيف القاطع لرقاب الفِرَى ودعاوى المبطلين. إنّ إذكاء جذوة المطالبة بالبرهان، وتنمية خُلُق التثبُّت والتبيُّن، والعناية بالدليل والحجة من أعظم أسباب نهضة الأمّم واستقامتها على الصراط المستقيم، وحين تتخلّى الأمة عن هذا الأصل يتكاثر في مفاصلها المفترون، والخرّاصون، فتتبلّد العقول، وتتفطَّر الفِطَرُ، ويموت الإحساس بالارتكاس، فتغرق في بحار الظلمات، ويَذْهَبُ اللهُ بها، ويستخلفُ من بعدها قومًا آخرين. ومن الظواهر الخبيثة ظاهرة تمجيد التقليد والاستخفاف بالبراهين؛ حتى افتخر أقوام بأنهم لا يسألون سادتهم وكبراءهم على ما قالوا برهانًا! وترتَّب على سلوك هذه الأنفاق المظلمة تكاثر الكبراء المستبدّين، وتضييع الطاقات والأوقات في خدمة هؤلاء الأكابر الذين يزعمون أنهم يمتلكون صكوكَ الغفران والرضوان، ومفاتيح الجِنان، وعقاب مَن يعصيهم ولم يبذل نفسه وماله في مرضاتهم ومراضاة حواشيهم بالإلقاء في النار.

[39] سورة البقرة آية (111-112)

– الثاني: نقض دعوى أهل الكتاب في المثوبة والجزاء، فقد ادَّعوا أن الجنّة حجرٌ لا يدخلها إلا من تَبِع ملتهم، وهي دعوى خاوية لا تســـندها حجة، فأمَرَ اللهُ تعالى رسـولَه بمطالبتهم بالبرهان على دعواهم، إن كانوا صـادقين؛ ليَعْلَمَ الناسُ أجمعون أن اليهود والنصارى كاذبون وضالُّون مُضلُّون.

الثالث: بيان سنّة الله تعالى الثابتة في المثوبة والجزاء الحسن، في قوله تعالى: "بَلَى مَنْ أَسْـلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِـنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ". ألا فليعلم الأدعياء والمتقوِّلُون على الله تعالى أن الجنّة إنما أعدَّت لمن أسلم وجهه لله وهو محسن، ولقد كثُر المبطلون وتكاثرت الفرق المتنازعة المنتسبة إلى الإسلام.

تبدأ الآية بعرض دعوى اليهود والنصـارى: "وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـارَى" "لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ" "لن" لنفي الحدوث في المسـتقبل، والفعل في سـياق النفي للعموم، و"الجنة" هي المعهودة، "إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـارَى" إلا للحصـر، "من" موصـول يعمّ، "والهُود جمع هائد أي متبع اليهودية"[40]، والمعنى كما بيَّنه الإمام الطبريّ: "وقالت اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا، وقالت النصـــارى: لن يدخل الجنة إلا النصـــارى. ولكن معنى الكلام لما كان مفهومًا عند المخاطبين به، جُمع الفريقان في الخبر عنهما"[41]. "تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ" النكرة المضـــافة تعمّ، والمراد بها خصـــوص الأمانيّ المفتراة على الله تعالى، "قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَـــادِقِينَ": "قُلْ": أمر للرسـول صـلى الله عليه وسـلم، "هَاتُوا" أمر للتحدي، "بُرْهَانَكُمْ" نكرة مضـــافة تعمّ، ثمّ مال على دعواهم وأمانيّهم بالإبطال، وأظهر الحقّ للخلق فقال: "بَلَى مَنْ أَسْـــلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِـــنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ"، "بَلَى" حرف جواب لنقض دعواهم. و"مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ

[40] ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج673/1

[41] الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج2/ 507

أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ"، هذه هي سـنّة الله تعالى الدائمة في التكريم والتنعيم وحســن العاقبة، "من": شــرطية من صــيغ العموم، "أجرُه": نكرة مضـافة تعمّ، له أجره كلّه غير منقوص، "وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ" "خوف" نكرة في سياق النفي تعمّ، "وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ" "يحزنون": فعل في ســياق النفي يعمّ، فلا حزنَ عليهم أبدًا، بل هم في سعادة دائمة ونعيم مقيم.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[42].

أنى لمن يقضي بلا برهان، ويحكم بلا ميزان أن يقيم دينًا، أو يُصلح دنيا. لقد وردت الآية في سياق تثبيت المؤمنين، وبيان سبيلهم، ورفع لوائهم، ودحض ادّعاءات اليهود والنصارى والمشركين، وتنكيس رايتهم، وبيان بغيهم وسفههم؛ حتى تستبين سبيل المجرمين للعالمين.

لقد كشفت الآية الغطاء عمّا يجري بين اليهود والنصارى والمشركين من التعدّي، والنُّكران، والتضليل، والجحود، والتكفير، والتسفيه، فكلّ فرقة منهم تدَّعي التفرُّد بالحقّ، وتجرّد غيرها من كلّ صواب. ذكر العلّامة محمد رشيد ناقلًا عن شيخه محمد عبده: "أن كل واحد منهم على شيء من الحقّ وشيء من الباطل؛ لأن أصل دينه حقّ، ثم طرأت عليه نزعات الوثنية والبدع، وعرض له التحريف والتأويل، فتجريده من كل حقّ لم يكن إلا تعصُّبًا للتقاليد من غير بينة ولا تمحيص، وأنى للمقلدين بذلك؟ وانظر كيف ألحق التقليد أهل الكتاب الذين كانوا على علم بالدين الإلهي بالمشركين الذين لا يعلمون منه شيئًا؟ هذا ما فعله التقليد بهم، وبمن بعدهم؛ لأنه عدوٌّ للعلم في كل زمان وكل مكان"[43].

ثمّ أخبرنا الله تعالى بأنه جامعهم يوم القيامة فيحكم بينهم، وفي هذا وعيد شديد، وتهديد لمن يظلم غيره من أيّ ملَّة أو أمّة كان، فالحقّ أحقّ أن يحترم ويتبع، ولو كان صاحبه عدوًّا كافرًا.

---

[42] سورة البقرة آية (113)

[43] رضا، تفسير المنار، مرجع سابق، ج1/ 354

"وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ": اليهود والنصارى: لفظان عامّان، "شَيْءٍ": نكرة في سباق النفي تعمّ، قال العلّامة ابن عاشور: "الصيغة صيغة عموم والمراد بها في مجاري الكلام نفي شيء يعتدّ به في الغرض الجاري فيه الكلام بحسب المقامات، فهي مستعملة مجازًا كالعام المراد به الخصوص، أي: ليسوا على حظّ من الحقّ، فالمراد هنا ليست على شيء من الحق، وذلك كناية عن عدم صحة ما بين أيديهم من الكتاب الشرعيّ، فكل فريق من الفريقين رمى الآخر بأن ما عنده من الكتاب لا حظّ فيه من الخير كما دلّ عليه قوله بعده: "وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ"[44]. "وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ" أي: المنزّل عليهم (التوراة والإنجيل).

"كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ" "الذين" للعموم، والفعل في سياق النفي يعمّ، وهو مخصّص بالمفعول المقدر: لا يعلمون الكتاب من مشركي قريش وغيرهم، دلّ على ذلك السياق، والكذب على الله تعالى مع العلم وقيام الحجة شيء عظيم، قال الإمام الطبريّ: "وإنما قصد الله جل ثناؤه بقوله: "كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم"، إعلام المؤمنين أن اليهود والنصارى قد أُتوا من قيل الباطل، وافتراء الكذب على الله، وجحود نبوة الأنبياء والرسل، وهم أهل كتاب يعلمون أنهم فيما يقولون مبطلون، وبجحودهم ما يجحدون من ملتهم خارجون، وعلى الله مفترون، مثل الذي قاله أهل الجهل بالله وكتبه ورسله، الذين لم يبعث الله لهم رسولا ولا أوحى إليهم كتابًا. وهذه الآية تنبئ عن أن من أتى شيئا من معاصي الله على علم منه بنهي الله عنها، فمصيبته في دينه أعظم من مصيبة من أتى ذلك جاهلا به؛ لأن الله تعالى ذكره عظَّم توبيخ اليهود والنصارى بما وبخهم به في قيلهم ما أخبر عنهم بقوله: "وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على

[44] ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج676/1

شـــيء"، من أجل أنهم أهل كتاب قالوا ما قالوا من ذلك على علم منهم أنهم مبطلون"[45]

"فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ" "ما" موصـــول يعمّ كلّ ما اختلفوا فيه. قال أبو جعفر: "يعني بذلك جل ثناؤه: فالله يقضي، فيفصل بين هؤلاء المختلفين القائل بعضهم لبعض: لستم على شيء من دينكم، فيتبين المحقّ منهم من المبطل بإثابة المحقّ ما وعد أهل طاعته على أعماله الصالحة، ومجازاته المبطل منهم بما أوعد أهل الكفر به على كفرهم به فيما كانوا فيه يختلفون من أديانهم ومللهم في دار الدنيا. وأما "القيامة" فهي مصدر من قول القائل: "قمت قياما وقيامة"، كما يقال: "عدت فلانا عيادة" و"صنت هذا الأمر صيانة". وإنما عنى "بالقيامة" قيام الخلق من قبورهم لربهم. فمعنى "يوم القيامة"، يوم قيام الخلائق من قبورهم لمحشرهم"[46].

[45] الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج2/ 517-518

[46] الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج2/ 518 بتصرُّف يسير.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[47].

إن الاضطهاد والإكراه الدينيّ والتعدِّي على شعائر الله تعالى شرٌّ عظيم، ومشكلة إنسانيّة جسيمة، وخطيئة من أخبث الخطايا التي توجب تنحية الظالمين من طريق الأُمّة الوارثة وفق سنّة دفع الله الناس بعضهم ببعض، وتُبشِّر بتحوُّلات كبرى وفق سنّة الله تعالى القاضية بأن العاقبة للمتقين، وأن الأرض يرثها عباد الله الصالحون، فمنطوق هذه الآية ذمٌّ، ونذيرٌ من نُذُر الاستبدال، ووعيد للظالمين الذين يمنعون إقامة شعائر الله تعالى في مساجد الله تعالى، ويسعون في خرابها، وفي الآية حثٌّ على دفع الظالمين، وتبشير بظهور المؤمنين وتمكينهم في الأرض، ووعيدٌ للظالمين بالخزي في الدنيا، والعذاب العظيم في الآخرة.

وأما مفهوم الآية فمدح ووعدٌ وتكريم؛ إذ يدُلُّ على أن خيار الناس هم الذين يعمرون مساجد الله تعالى ويُكرمون عُمَّارها، وأن الله تعالى مكرمهم وناصرهم في الدنيا، ولا يلحقُهم سوء في الآخرة، بل يحسن الله تعالى إليهم، ولم يك أحدٌ حينئذ قائمًا بهذه المحاسن إلا محمّد عليه الصلاة والسلام وأصحابه رضي الله عنهم. وقد علم المسلمون ومن جاورهم في جزيرة العرب كيف منعت قريشٌ رسولَنا عليه الصلاة والسلام وأصحابه من ذكر الله تعالى في البيت الحرام، وكيف دنَّست البيتَ الحرام بالأصنام والشرك، ومع ذلك يزعم مشركو قريش أنهم ورثة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وأنهم عُمَّار البيت الحرام! وقد تحقّق وعدُ الله تعالى للمؤمنين، ووعيده للظالمين في العهد الأول. والمدح وحسن العاقبة غير

[47] سورة البقرة آية (114)

مقصـورين على زمن معيَّن، وكذلك الذمّ وسـوء العاقبة؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص الواقع والوقائع.

وظاهرة المنع من عمارة المسـاجد، والسـعي في خرابها ظاهرة متجدّدة، فاليهود، والنصـارى، والوثنيُّون، والمجرمون يحاربون مسـاجد الله تعالى في مشـارق الأرض ومغاربها، وما تشـهده فلسـطين وفرنسـا، وسـوريا وغيرها من بلاد العالم يفوق الحصـر، فالواجب على المؤمنين الصـبر والمصـابرة لدفع الظلم وكسـر شـوكة الظالمين، فالتمكين قادمٌ على أجنحة الحقّ لا يتخلَّف.

وقد انتظمت الآية من أربعة أجزاء محكمة متسقة:

الجزء الأول: قوله تعالى: "وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا"، وفيه بيان لشـناعة هذا الظلم وجسـامة هذه الخطيئة. "وَمَنْ أَظْلَمُ" اسـم الاستفهام عامّ، قال السمين: "مَنْ: استفهامٌ، ومعنى الاستفهامِ هنا النفيُ، أي: لا أحدَ أظلمُ منه، ولما كان المعنى على ذلك أَوْرَدَ بعضُ الناس سـؤالاً: وهو أنَّ هذه الصيغةَ قد تكرَّرتْ في القرآن: "وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى"[48]، "وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ"[49]، "فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ علَى الله"[50]، وكلّ واحدةٍ منها تقتضـي أنَّ المذكورَ فيها لا يكونُ أحدٌ أظلمَ منه، فكيف يُوصـفُ غيرُه بذلك؟ وفي ذلك ثلاثةُ أجوبةٍ، أحدُها: -ذكره هذا السـائلُ- وهو أَنْ يُخَصَّ كلُّ واحدٍ بمعنى صـلته كأنه قال: لا أحدَ من المانعين أظلمُ مِمَّنْ مَنَعَ مسـاجدَ الله، ولا أحدَ من المفترين أظلمُ مِمَّن افترى على الله، ولا أحدَ من الكذَّابين أظلمُ مِمَّن كَذَب على الله، وكذلك ما جاءَ منه. الثاني: أن التخصـيصَ يكونُ بالنسـبةِ إلى السَّـبْقِ، لما لم يُسْـبَقْ أحدٌ إلى مثلِه حَكَم

[48] سورة الأنعام آية (21)

[49] سورة السجدة آية (22)

[50] سورة الزمر آية (32)

عليهم بأنَّهم أظلمُ مِمَّن جاء بعدَهم ســـالكًا طريقتَهم في ذلك، وهذا يَؤُول معناه إلى السَّـبْقِ في المانعيَّةِ والافترائيّةِ ونحوِهما. الثالث: أنَّ هذا نَفْيٌ للأظلميَّة، ونفيُ الأظلميَّةِ لا يَسْـــتَدْعي نفيَ الظالميةِ؛ لأنَّ نَفْيَ المقيدِ لا يَدُلُّ على نفيِ المطلقِ، وإذا لم يَدُلَّ على نَفْيِ الظالميةِ لم يكن مناقِضًا؛ لأنَّ فيها إثباتَ التسوية في الأظلميةِ، وإذا ثَبَتَتْ التسويةُ في الأظلميةِ لم يكنْ أحدٌ مِمَّن وُصِف بذلك يزيدُ على الآخر لأنهم متساوون في ذلك وصار المعنى: ولا أحدَ أظلمُ مِمَّن مَنَع ومِمَّن افترى وممَّن ذُكِّر، ولا إشكالَ في تســاوي هؤلاء في الأظلميَّة"[51]. "مِمَّنْ مَنَعَ مَسَـــاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ" "من" موصــول يعمّ، "مســاجد" نكرة مضــافة إلى لفظ الجلالة تعمّ كلّ المســاجد، "اسمه" نكرة مضافة تعمّ، "وَسَعَى فِي خَرَابِهَا" والخراب عامٌّ يشمل الحسّيّ كالتفجير والتدمير، والخراب المعنويّ كاتخاذها لغير ما بُنيت له، وتاريخ النصـــارى والكفار واليهود والمجرمين مليء بحوادث تخريب المساجد حسّيًّا ومعنويًّا. وهذا الشكل من أشكال الظلم ينادي بتنحيتهم وزوالهم، والإتيان بورثة صالحين.

الجزء الثاني: قوله تعالى: "أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ"، وفيه دلالة على حكم الله تعالى في هؤلاء الظالمين بوجوب دفعهم وإخافتهم، وفيه تبشـــير بتمكين المؤمنين، قال العلّامة ابن كثير: "هذا خبر معناه الطلب، أي لا تُمَكِّنوا هؤلاء -إذا قَدَرْتم عليهم-من دخولها إلا تحت الهدنة والجزية.

وقيل: إن هذا بشارة من الله للمسلمين أنه سيُظْهرهم على المسجد الحرام وعلى سائر المساجد، وأنه يذلّ المشركين لهم حتى لا يدخل المسجد الحرام أحد منهم إلا خائفًا، يخاف أن يؤخذ فيعاقب أو يقتل إن لم يسلم. وقد أنجز الله هذا الوعد"[52]، ولا تعارض بين الطلب والتبشير.

---

[51] السمين، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، مرجع سابق، ج2/16-17 بتصرّف يسير.

[52] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ج1/389 بتصرف يسير.

الجزء الثالث: قوله تعالى: "لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ"، وهذا يحتمل أن يكون حكمًا شرعيًّا مؤكِّدًا للجزء السابق، ويحتمل أن يكون وعيدًا وجزاءً قدريًّا وسنّة كونيّة عاجلة. والتنكير في لفظ "خِزْي" للتهويل.

الجزء الرابع: قوله تعالى: "وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ"، وهذا وعيدٌ وتهديد.

"لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ" يؤكِّد طلبَ دفع الظالمين أخزاهم الله تعالى، وعجَّل بسقوطهم وإذلالهم، ويبشِّر بعلوِّ المؤمنين، وخزي أعدائهم.

﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[53].

من خصائص نصوص القرآن الكريم أنها تكشف الحقائق بألطف عبارة، وتحلُّ المشكلات العظام بإيجاز وإحكام، وتعالج الأمراض الجسام بالتي هي أحسن، فتفتح أبواب السَّعة بعد الضِّيق، واليُسْر بعد العُسْر، والفَرَجِ بعد الشدّة، ومن عادة القرآن ألّا يترك المسائل معلّقة ناقصة، بل يوفيها ما تستحقُّه بما يناسب سياقها، وهذه الآية تبيّن سعة رحمة الله تعالى وعظيم فضله على العباد، وتقدِّم العلاج الشافي لما تبقى من المشكلة السابقة: مشكلة منع ذكر الله تعالى في المساجد والسعي في خرابها، فقد عالجت الآية السابقة جانبًا من المشكلة، وبقي جانب آخر يستدعي معالجة عاجلة، وذلك أن المؤمنين المستضعفين الممنوعين من ذكر الله تعالى في المساجد، والمهجَّرين من ديارهم بغير حقّ يحزنهم ذلك المنع والحرمان، فعوّضهم الله تعالى بأن جعل لهم الأرض كلَّها مسجدًا.

إن هذه الآية تخبرنا بمنطوقها الصريح بالتوسعة الربّانية على المؤمنين الوارثين في كلّ عصرٍ ومصرٍ، فإن التهجير والتضييق الذي قد يتعرض له المؤمنون في مساجد الله تعالى مدفوع بهذه التوسعة؛ فأينما تولّوا أيها المؤمنون فثَمَّ وجه لله تعالى، فأسلموا وجوهكم له واعبدوه مخلصين له الدين. فما أطيب وقع هذه البشارة على قلوب الصالحين، فإن الصلاة قُرّة أعين المؤمنين، وما أشدّ إيلامها لقلوب الظالمين. وما أبعد ما بين الفريقين: فريق يعمُر الأرض كلّها بذكر الله تعالى، ويسعى في صلاحها، وفريق يمنع مساجد الله تعالى أن يذكر فيها اسمه ويسعى في خرابها، فأيُّ الفريقين أحقُّ بالأمن والتمكين وحسن العاقبة؟

"وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ" تقديم شبه الجملة "وَلِلَّهِ" يفيد الحصر، ومفهومه أن

[53] سورة البقرة آية (115)

ليس لأحدٍ من خلقه فيهما نصيب البتة. "الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ" "أل" للاستغراق، "فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ" "أينما" ظرفية شرطية تعمّ كلّ أرضٍ في المشرق أو المغرب، ثمّ ختم الآية بالثناء على الله تعالى بصفتي السعة والعلم؛ ليركن المؤمنون إلى الواسع العليم، فلا يخافون بخسًا ولا رَهَقًا، فالله "واسع يسع خلقه كلّهم بالكفاية والإفضال والجود والتدبير، عليمٌ بأفعالهم لا يغيب عنه منها شيء ولا يعزب عن علمه"[54].

[54] الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج537/2 بتصرُّف يسير.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ * بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[55].

تتوالى الآيات في بيان الموبقات التي يقترفها المشركون والمشركات من أهل الكتاب وعبّاد الأوثان، فتكشف القناع عن وجوههم المظلمة؛ لتستبين للناس شرورهم، وليعلموا أن هذه الطوائف تتخذ الدين ذريعة للبغي والفساد في الأرض، فهم لا يصلحون لإمامة الناس، وهدايتهم، بل يستحقُّون الإذلال والاستبدال. ويمضي القرآن الكريم كعادته في عرض الفِرى ونقضها بأحكم أسلوب، فيبطلها بالبراهين الدامغة، والحجج البالغة، فلا يترك لها أثرًا. ولما كان معلومًا أن ولد كلّ والدٍ من جنسه، اكتفى الله -عزّ وجلّ- بما وصف؛ لتنزيه نفسه، فإن الله تعالى ليس كمثله شيء، فأنّى يكون له ولد؟ وليس في الوجود شيء يدعو إلى القول باتخاذ الله تعالى ولدًا، بل الكون كلُّه، والفطرة، والعقل على نقض هذه الفرية، ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾[56]، فالولد دليل الافتقار المنافي للغنى، والله هو الغنيّ. **وسوف أوجز شرح الآيتين في العبارات الآتية:**

[55] سورة البقرة آية (116-117)

[56] سورة يونس آية (68-69)

– **"وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا"**: هذا أول موطن يصرّح فيه القرآن الكريم بهذه الفرية المخروقة بلا علم، ﴿وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ﴾[57]. ولفظ "ولد" مطلق يصدق على عزير وعلى المسيح، وعلى فرية مشركي العرب القائلين الملائكة بنات اللّه.

وقد اختلف المفسرون في تعيين المفترين، قال العلّامة ابن عطيَّة: "قرأ هذه الآية عامّة القراء "وَقَالُوا" بواو تربط الجملة بالجملة، أو تعطف على "وَسَعَى فِي خَرَابِهَا"، وقرأ ابن عامر وغيره "قالوا" بغير واو، واختلف على من يعود الضمير في قالُوا"[58]، والسياق يدلّ على أن الضمير عائد على الطوائف الثلاث السابقة؛ لأنهم جميعًا يقولون: "اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا"، فاليهود والنصارى ومشركو العرب متفقون على القول بهذه الفرية.

– "سُبْحَانَهُ": لهذه الكلمة مقاصد منها: تنزيهُ الله تعالى، وتسفيه المفترين؛ لأن نسبة الولد إلى الله تعالى منقصة وعيب ينزّه الله تعالى عنه، وقد مهَّدَ الله تعالى لقطع دعواهم بقوله: "سُبْحَانَهُ"! وهذه الكلمة الطيبة تفيض بالتقديس والتسبيح والإكرام، فتَوْجَل من جلالها القلوب، وتقشعر من هيبتها الجلود، ولو لم يذكر ربنا عزّ وجلّ غيرها لكانت كافية، ولكن السياق سياق مجادلة ودفع للشبهات، "سُبْحَانَهُ: "سُبْحَانَ": مفعول مطلق ومعناه: التنزيه والإبعاد عن كلّ عيب ونقص، وهذه الكلمة نكرة مضافة إلى معرفة، فهي تعمّ كلّ تنزيه فما

---

[57] سورة الأنعام آية (100)

[58] ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، مرجع سابق، ج201/1 بتصرف يسير.

أجلّها من كلمة تقديس وتنزيه! وما أحسن هذا التقديم بين يديّ البرهان المبين!

– "بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ"، هذا وصف لله تعالى، فكلّ ما في السماوات والأرض ملك لله تعالى، خاضع له، فعزير، وعيسى كانا عبدين لله تعالى قانتين له، يأكلان الطعام ويمشيان على الأرض كغيرهم من البشر، فكيف يجعلان إلهين من جنس الأحد الصمد، وأما الملائكة فحقيقتهم أبعد عن علم الناس؛ لأنهم من عالم الغيب الذي لا برهان لهم به، فالقول فيهم محض افتراء واختلاق، وقد فسّر الزمخشريّ الآية بقوله: "بَلْ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ هو خالقه ومالكه، ومن جملته الملائكة وعزير والمسيح كُلٌّ لَهُ قانِتُونَ منقادون، لا يمتنع شيء منه على تكوينه وتقديره ومشيئته، ومن كان بهذه الصفة لم يجانس، ومن حق الولد أن يكون من جنس الوالد"[59]. "ما": موصول يعمّ، و"السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ": "أل" للعهد، "كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ": "كلّ" يعمّ السماوات والأرض وكلّ من فيهنّ، والقنوت أصله الدوام، ثم استعمل بمعنى الطاعة، وطول القيام، وبمعنى السكوت[60].

– "بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ"، وهذا وصف ثانٍ لله تعالى يمنع من نسبة الولد إلى الله تعالى، والبديع والمبدع بمعنى واحد، وهو الإنشاء على غير مثال سابق "أل" للعهد، فقد خلق الله تعالى السماوات والأرض قبل وجود من ادُّعي لله تعالى ولدًا.

---

[59] انظر: الزمخشري، الكشاف، مرجع سابق، ج1/ 180-181

[60] انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، مرجع سابق، ج23/4

– "وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ" "إِذَا": الشرط يعمّ، القضاء هنا هو الكونيّ، "أمر": نكرة في سياق الشرط تعمّ، "إنما": للحصر، "كن": الأمر للتكوين. هذا وصف خالص لله تعالى لا يشاركه فيه أحدٌ، فإن كلّ ما يحار فيه الناظر من عجائب المخلوقات إنما وجودها بأمرٍ من الله تعالى بقوله: "كُن". فالبديع الذي يخلق الأشياء على غير مثالٍ سابق، وإذا أراد شيئًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ لا يمكن أن يكون له ولدٌ.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[61].

إذا استحوذ العتوّ والجحود على الإنسان، جعل عاليَه سافلَه، وحمله على الإثم والعدوان والتقدُّم بين يدي الله الواحد القهار بما لا يرضى، ولا عجب فقد مضى الذين لا يعلمون على شاكلة الذين من قبلهم؛ لأنهم قد "تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ"، وقد هوى بهم الاستكبارُ إلى الدركَ الأسفل من السّفه؛ حتى حملهم على أن يُمْلُوا على الرسل عليهم الصلاة والسلام نوع الآيات؛ ليؤمنوا بالله تعالى! وهذا السّفه يتجدّد بتجدّد الاستكبار والعتوّ في قلوب الناس، وقد جاء الردّ حاسمًا قاطعًا لتطاولهم وعدوانهم، فقال الله تعالى: "قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ"، فلا مبدِّل لآيات الله تعالى، ولا اعتبار بالمعرضين الذين لا يوقنون، فلما أعرضوا عن آيات الله تعالى، أعرض الله تعالى عنهم، والجزاء من جنس العمل.

"وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ" "الذين" اسم موصول يعمّ، ويحتمل أن يراد به خصوص مشركي العرب كما ورد في آية سابقة "كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ"[62]. والفعل "يعلمون" في سياق النفي يعمّ، والمراد به الخصوص، "لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ" "لولا": للتحضيض، "كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ" "الذين": موصول عامّ، والمراد بهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى، "تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ": قلوب مضافة لمعرفة تعمّ، "قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ" "الْآيَاتِ": "أل" للعموم، "قوم" نكرة مقيدة بالصفة الجملة بعده، ومنطوق النصّ كما قال العلّامة ابن كثير: "قد وضّحنا الدلالات على صدق الرسل بما لا يحتاج معها إلى سؤال آخر وزيادة أخرى،

---

[61] سورة البقرة آية (118)

[62] سورة المؤمنون آية (71)

لمن أيقن وصـــدق واتبع الرســـل، وفَهِمَ ما جاؤوا به عن الله تبارك وتعالى"[63]، وأما مفهومه فالذين لا يوقنون لا ينتفعون بالآيات البيِّنات ولا يهتدون بها.

[63] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ج1/ 400

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾[64].

ما أسعد من اتبعك يا رسول الله وما أشقى من تولّى عن هداك.

هذه الآية عامرةٌ بالتعظيم والتكريم، نصرًا للرسول عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، وكسرًا للمستكبرين أصحاب الجحيم. انظر كيف بدأ الله تعالى قولَه الفصلَ بأداة التوكيد المتصلة بضمير المعظِّم نفسَه، ثمّ أسند الفعل إلى ضمير المعظّم نفسه، وفي هذا الأسلوب البليغ تعظيم لله ربّ العالمين المتفرّد بالخلق والأمر، فهو العليم الحكيم اللطيف الخبير، يرسل من يشاء بما يشاء، وليس لأحدٍ أن يملي شروطًا، أو أن يقترح على الله تعالى ما ينزّل ومن يرسل، وفيه تكريم لرسوله الأمين بتحميله رسالة الحقّ، وجعله بشيرًا بالبركات والخيرات، ونذيرًا من الشرور والسيئات، ثمّ خاطب الله تعالى رسوله عليه الصلاة والسلام، وبيّن له حقيقة العمل الموكل إليه، فقد أرسله الله تعالى بالحقّ الكامل الذي لا يأتيه الباطل من يديه ولا من خلفه، فمن اهتدى به فله البشرى، فلا يضلّ ولا يشقى، ومن أعرض عنه، فله معيشة ضنْكٌ (ضنكى) في الدنيا، وعذاب أليم في الآخرة. ثمّ ختم الآية بالإهانة والتهديد والوعيد للجاحدين المستكبرين.

"إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا"، أداة التوكيد المتصلة بضمير المعظِّم نفسه تدفع إنكار المنكرين المستكبرين، والفعل "أرسل" في سياق الإثبات للإطلاق، وقد قيّد بالمفعول به "كاف المخاطب"، وبالجارّ والمجرور

[64] سورة البقرة آية (119=120)

"بِالْحَقِّ"، والحقّ هو الكامل المبين، و"بَشِيرًا وَنَذِيرًا"، اللفظان قيدان للفعل، ويتضمنان علة الإرسال. قال الإمام الطبري في تفسيره: "إنا أرسلناك يا محمد بالإسلام الذي لا أقبل من أحد غيره من الأديان، وهو الحق؛ مبشرا من اتبعك فأطاعك، وقبل منك ما دعوته إليه من الحق –بالنصر في الدنيا، والظفر بالثواب في الآخرة، والنعيم المقيم فيها، ومنذرا من عصاك فخالفك، ورد عليك ما دعوته إليه من الحق – بالخزي في الدنيا، والذل فيها، والعذاب المهين في الآخرة"[65].

"وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ" الفعل في سياق النفي يعمّ كلّ سؤال، فلا عتب عليك بضلالهم؛ لأنك قد أقمت الحجة البالغة عليهم بما تدعو إليه، و"أصحاب": نكرة مضافة تعمّ كلّ الجاحدين والمستكبرين من المشركين وأهل الكتاب وغيرهم.

[65] الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج2/ 557-558

﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[66].

في هذه الآية هدى عظيم النفع في العاجل والآجل، وأصل من أصول السياسة الشرعيّة للتعامل مع اليهود والنصارى، والناظر في أحوال المسلمين في هذا العصر يجد شرّ اليهود والنصارى في الأمة كثيرًا مستطيرًا، ولو أن المسلمين انتفعوا بما أرشدت إليه هذه الآية وأمثالها، لحافظوا على كثيرٍ من مصالحهم، واتقوا شرًّا كثيرًا، فاليهود والنصارى هم اليوم أشرس الناس حربًا على الإسلام والمسلمين، ومن أشدّهم عداوة وإيذاء وخداعًا ومكرًا، وقد فرَّقوا جموع المسلمين، فانتهكوا سيادة كثير من أوطاننا، ونهبوا ثرواتها، واتخذوا كثيرًا من المسلمين سِخريًّا، ولا يزال المنافقون والمغفلون يلهثون وراءهم، ويسعون في جلب رضاهم، فلا يزيدونهم إلا خبالًا.

"وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ" يخاطب الله تعالى رسوله عليه الصلاة والسلام أن ليس في صدور اليهود والنصارى محلًّا للرضا عنك؛ فلا تنتظر منهم رضا أو مودّة، والخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام أصالةً ولأمّته تبعًا. وفي هذا البيان قطع للطمع في استئلاف قلوب الجاحدين المعرضين من اليهود والنصارى، وتحذيرٌ من اتباعهم والركون إليهم، فلا ينغي أن نتوقع رضاهم عنّا أبدًا، فلنحتفظ

[66] سورة البقرة آية (120)

بجهودنا، ولنأخذ حذرنا منهم؛ لأن أيَّ مبادرة منهم ظاهرها الرضا، فإن باطنها الخديعة.

"وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ" "لَنْ تَرْضَى": الفعل في سياق "لن" النافية يدلّ على انتفاء جميع أنواع الرضا مستقبلًا، و"الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى" "أل" فيهما للعموم، وخصّص انتفاء جميع أنواع الرضا بالغاية "حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ"، ومعنى الغاية في هذا الموضع ما ذكره ابن عاشور: "الكناية عن اليأس من اتباع اليهود والنصارى لشريعة الإسلام يومئذ؛ لأنهم إذا كانوا لا يرضون إلا باتباعه ملتهم، فهم لا يتبعون ملته، ولما كان اتباع النبيء ملتهم مستحيلًا، كان رضاهم عنه كذلك على حد "حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ"[67].

"قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى" "قُلْ" الأمر للوجوب، "الهدى" موصوف بصفة مقدرة: الهدى الحقّ، ومفهوم المخالفة: أن هدى غير الله ليس بهدى، "وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ": "اتَّبَعْتَ" فعل في سياق الشرط يعمّ كلّ أنواع الاتباع، أهواء نكرة مضافة تعمّ أهواءهم كلّها، "بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ" هذا مخصّصٌ لعموم فعل الاتباع، وفيه دلالة على أن الحجة لا تقوم على العباد إلا بعد ورود الرسالة، "الذي" موصول عامّ، "من" للتبعيض، "العلم" "أل" للعموم، ويجوز أن يكون "من" بيانيّة، والعلم مرادٌ به علم خاصّ، قال الإمام الطبري: "العلم بضلالتهم وكفرهم بربهم"[68]. "مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ" أهواء نكرة مضافة تعمّ، "مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ": نكرتان مسبوقتان

[67] ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج693/1

[68] الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج564/2

بحرف الجرّ للتنصيص على العموم، فلا ولي لهم مِنَ اللَّهِ ولا نصير البتة، وفي هذا تحذيرٌ شديد من الركون إليهم، وفيه حثٌّ على لزوم البراءة منهم، قال صاحب الظِّلال: "بهذا التهديد المفزع، وبهذا القطع الجازم، وبهذا الوعيد الرعيب .. ولمن؟ لنبي الله ورسوله وحبيبه الكريم! إنها الأهواء .. إن أنت مِلْتَ عن الهدى .. هدى الله الذي لا هدى سواه .. وهي الأهواء التي تقفهم منك هذا الموقف وليس نقص الحجة ولا ضعف الدليل"[69].

قال الرازيّ: "اعلم أنه تعالى لما صبّر رسوله بما تقدّم من الآية، وبين أن العلة قد انزاحت من قبله لا من قبلهم، وأنه لا عذر لهم في الثبات على التكذيب به، عقَّب ذلك بأن القوم بلغ حالهم في تشدّدهم في باطلهم وثباتهم على كفرهم أنهم يريدون مع ذلك أن يتبع ملتهم، ولا يرضون منه بالكتاب، بل يريدون منه الموافقة لهم فيما هم عليه، فبين بذلك شدة عداوتهم للرسول وشرح ما يوجب اليأس من موافقتهم والملة هي الدين"[70].

[69] انظر: قطب، سيد، في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، ط: 3 ، 2001، ج108/1

[70] انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، مرجع سابق، ج29/4

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[71].

جاءت هذه الآية الجامعة؛ لتضمّ أطراف الحديث في أمرين عظيمين: الثناء على المؤمنين بوصفهم بصفة جامعة للخيرات، وهي تلاوة كتاب الله حقَّ تلاوته، وذمّ الكافرين بكتاب الله تعالى وهداه، وإنذارهم بالخسران المبين.

وإذا تدبّرتَ سورةَ البقرة من أولها إلى آخرها فستجدها مقسَّمة إلى مقاطع متناسقة متماسكة تتصل معانيها، وتمتدّ بإحكامٍ بديع. وقد ظهر لي توافق عجيب بين قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[72] وهي الآية الواقعة في مطلع هذا المقطع، وبين قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[73]، وذلك من وجوه:

الأول: صُدِّرت الآيتان بالحديث عن المؤمنين، وخُتمتا بالحديث عن الكافرين.

الثاني: الآية الأولى تنادي الذين آمنوا صراحة، والثانية تتحدّث عن الذين آتاهم الله الكتاب، وهم المؤمنون به، والظاهر أنهم كلّ من آمن بالقرآن الكريم من العرب، واليهود، والنصارى، وغيرِهم، وهم صحابة الرسول عليه الصلاة والسلام، وبهذا يلتئم السياق.

الثالث: الآية الأولى تدعو الذين آمنوا إلى حسن السمع والطاعة، والثانية تُثني على الذين آتاهم الله الكتاب بأنهم قد وفَّوا بما أُمِروا به من حسن السماع

---

[71] سورة البقرة آية (121)

[72] سورة البقرة آية (104)

[73] سورة البقرة آية (121)

وحسن الاتباع، فهم يتلون الكتاب حقّ تلاوته، فيستحقون الإمامة في الدين دون غيرهم.

الرابع: الآية الأولى تبيّن أن الكافرين لهم عذاب أليم، وتقرّر بأسلوب الإيماء والتنبيه أن علّة ذلك العذاب هو الكفر، والثانية تبيّن أن الذي يكفر بالكتاب خاسر، وقد دلّ ظاهر النصّ بأسلوب الشرط على أن الكفر هو سبب ذلك الخسران.

ولا يزال كثيرٌ من الناس يظنّ أن التلاوة حقّ التلاوة مقصود بها حسن الأداء وتجويد التلاوة، وقد أفضى بهم ذلك إلى التفريط في فهم القرآن الكريم واتباع هداه، وفاتهم ما لا يحصى من منافع القرآن الكريم وبركاته. وقد فرّط كثير من المسلمين في العناية بهذه الطاعة، فهجروا القرآن الكريم إلا قليلًا، وصرفوا جُلّ عنايتهم إلى ما يُنسي، ويُلْهي، ويُطغي. وفي تفسير المنار تكلّم العلّامة محمد رشيد رضا كلامًا نفيسًا في تفسيره الآية، ونقل عن شيخه محمد عبده وأفاد.

"الَّذِينَ آَتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ": "الَّذِينَ" موصول يعمّ جميع الذين آتاهم الله تعالى كتابه الكريم القرآن، وهم الذين آمنوا به من العرب، واليهود، والنصارى، وغيرهم، وهم صحابة الرسول عليه الصلاة والسلام، و"الْكِتَابَ" المعهود، وهو القرآن الكريم.

"يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ" قال الرازيّ: "التلاوة لها معنيان: أحدهما: القراءة. والثاني:

الاتباع فعلاً؛ لأن من اتبع غيره يقال: تلاه فعلاً، قال الله تعالى: ﴿وَالْقَمَرِ إِذا تَلاها﴾[74]، فالظاهر أنه يقع عليهما جميعاً، ويصحّ فيهما جميعاً المبالغة؛ لأن التابع لغيره قد يستوفي حق الاتباع فلا يخلّ بشيء منه، وكذلك التالي يستوفي حقّ قراءته فلا يخل بما يلزم فيه"[75]. فما أحوجنا إلى أن نتلو القرآن الكريم "حقّ التلاوة"! فما أكثر الذين يتلونه! وما أقلّ الذين يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ!

"وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ" مَن شرطية تعمّ كلّ كافر بكتاب الله تعالى، "فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ" "الْخَاسِرُونَ" "أل" لكمال الخسران، والمفهوم: مَن لم يكفر بالقرآن الكريم فليس بخاسر.

والله تعالى لا ينظر إلى الصور والأموال، فعن أبي هريرة قال: "قَالَ: رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ" رواه مسلم ح4651.

---

[74] سورة الشمس آية (2)

[75] انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، مرجع سابق، ج30/4

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾[76].

ينادي الله تبارك وتعالى بني إسرائيل نداء ترغيب وتحذير، وفي الآيتين توكيدٌ لما سلف التذكير به، وتهيئةٌ لهم لاستقبال ما يرد من الهدايات والعِبر في قصّة إبراهيم عليه السلام، القصّة التي تتوالى وقائعها بالحجج البالغة على بني إسرائيل ومن وافقهم من المشركين؛ لعلّهم يذّكّرون. وإبراهيم عليه السلام هو الإمام الذي يلتقي عنده بنو إسرائيل، والنصارى، ومشركو قريش خاصّة، وكلّهم يدّعي اتباع إبراهيم عليه السلام، وفي قصّته عليه السلام دفع لافتراءاتهم جميعًا.

وقد اختصّهم الله تعالى بندائه بين يدي قصّة أبيهم الأكبر؛ لعلّهم يقتدون به، ويوفون بالعهد باتباع النبيّ الأميّ الذي يجدونه مكتوبًا عندهم، ومصدّقًا لما معهم؛ ليصطفوا مع الذين يتلون الكتاب حقّ تلاوته؛ لأنه "لا يليق بمن كرّمه ربه، وفضّله على غيره من الشعوب بإيتائه الكتاب أن يكون حظُّه منه كحظ الحمار يحمل أسفارا"[77].

-"يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ" تَكرار النداء بهذه الكُنية الكريمة فيه جمع بين الترغيب والتقريب، "بَنِي": نكرة مضافة تعمّهم جميعًا.

-"اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ": الأمر للوجوب.

"نِعْمَتِيَ": نكرة مضافة إلى "ياء" المتكلّم ذي الجلال والإكرام تعمّ كلّ نِعَم الله تعالى على بني إسرائيل وغيرهم، وقد خُصّصت بالصفة: "الَّتِي أَنْعَمْتُ

---

[76] سورة البقرة آية (122=123)

[77] رضا، تفسير المنار، مرجع سابق، ج370/1

عَلَـيْكُمْ": وقـد أسـند الفعـل إلى "تاء" المـتكلّم للتوحيـد والامتنـان، ومفهـوم شـبه الجملة "عليكم": لا على غيركم.

-"وَأَنِّي فَضَّـلْتُكُمْ" المصـدر المـؤوّل بمعـنى: "تفضـيلي لكـم" يعـمّ كـلّ تفضـيل، والتفضـيل بعـض نعمـة الله تعـالى علـيهم، فهـو مـن باب عطـف الخـاصّ "التفضـيل" علـى العـامّ "نعمـتي"؛ لبيـان عظمـة نعمـة التفضـيل. و"الْعَـالَمِينَ": عامّ مراد به خصوص أهل زمانهم.

"وَاتَّقُـوا يَوْمًـا لَا تَجْـزِي نَفْـسٌ عَـنْ نَفْـسٍ شَـيْئًا": وهـذا انتقـال مـن مقـام الرجـاء إلى مقام التخويف والتحذير.

"وَاتَّقُـوا يَوْمًـا": الأمـر للوجـوب، فهـو تكليـف بفعـلِ مـا يقـي مـن أهـوال ذلـك اليـوم، وفيـه تخويـف و"يومًـا": هـو يـوم تتقطّـع فيـه الأسـباب إلا مـا أذن الله تعالى به، وقد قُيِّدت النكرة "يوم" بأوصاف:

الأول: "لَا تَجْـزِي نَفْـسٌ عَـنْ نَفْـسٍ شَـيْئًا": الفعـل: تجـزي والنكـرات الـثلاث: "نفـس، عـن نفـس، شـيئا" كلّهـا في سـياق النفـي فهـي عامّـة، والمعـنى: في ذلـك اليـوم "لا تقضـي نفـس عـن نفـس حقًـا لزمهـا لله جـل ثنـاؤه ولا لغـيره"[78]، ولا أحد يحمل من وزر غيره شيئًا.

الثـاني: "وَلَا يُقْبَـلُ مِنْهَـا شَـفَاعَةٌ" الفعـل: "يُقْبَـلُ" والنكـرة: "شَـفَاعَةٌ" كلّاهمـا في سـياق النفـي فهمـا عامّـان، والشـفاعة المنفيـة هـي الشـفاعة للكـافرين، وفي هـذا أبلغ التهديد والوعيد، فلا شافع يشفع لهم في ذلك اليوم.

الثالــث: "وَلَا يُؤْخَـذُ مِنْهَـا عَـدْلٌ" الفعـل: "يُؤْخَـذُ" في سـياق النفـي يعـمّ،

[78] الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق،ج32/2

والنكـرة: "عَـدْلٌ" في سـياق النفـي للعمـوم، والعَـدْل بفـتح العـين الفديـة[79]، فـلا يقبل منهم فدية! وأنى لهم الفدية في ذلك اليوم؟

الرابـع: "وَلَا هُـمْ يُنْصَـرُونَ": الفعـل في سـياق النفـي يعـمّ. فـلا ناصـر لهـم يـدفع عنهم ما عليهم بالمغالبة.

[79] الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق،ج34/2

﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[80].

الله تعالى يخلق ما يشاء ويختار، يجعل رسالته حيث يشاء، ويختصّ بالإمامة من يشاء، وينزعها ممّن يشاء، وكلّ شيء عنده بمقدار، وقد أنزل الرسالة الخاتمة على سيّدنا محمّد صلى الله عليه وسلّم، فكانت سببًا في حدوث تحوّل شرعيّ وكونيّ عظيم في الحياة كلّها، فقد نال محمّدٌ صلى الله عليه وسلم الإمامة العظمى للناس كافّة، وفازت أمته باتباعه، ونالت شرف حمل الرسالة من بعده، وخاب كلّ جبّارٍ عنيد، وقد ثار الأدعياء الظالمون من اليهود والنصارى، والمشركين، فبادروا لمنازعة الرسول صلى الله عليه وسلم، فمكروا مكرهم، وكادوا كيدهم، وافتروا على الله تعالى الكذب، وقد وردت هذه القصّة في هذا الموطن؛ لتظهر صلة الدعوة الخاتمة بملّة أبينا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وتؤدّي أمانة الإمامة الخاتمة الهادية للبشريّة كلّها إلى أهلها، فتصل الفرع بالأصل، وتعالج ما تبقى من الدعاوى الباطلة التي اختلقها أهل الكتاب والمشركون من قريش وغيرها.

إن إبراهيم عليه الصلاة والسلام الذي وفّى هو الإمام المجمع على إمامته عند أهل الكتاب، وعند العرب كافّة، وقد امتدّت إمامته وإمامة ذريّته إلى مشارق الأرض ومغاربها، فسكن هو وابنه إسحاق عليهما الصلاة والسلام في الأرض المباركة حيث بنى المسجد الأقصى، ومن هذا الفرع الطيّب جاء جمع من أئمّة الهدى: يعقوب، ويوسف، والأسباط، وموسى، وداوود، وسليمان، وعيسى، عليهم الصلاة والسلام. كما أسكن من ذريته عليه الصلاة والسلام في أمّ القرى

[80] سورة البقرة آية (124)

(مكة المكرّمة) ابنه الأكبر إسماعيل عليه الصـــلاة والســـلام الذي رفع قواعد المســـجد الحرام مع أبيه، وقد قام إسماعيل عليه الصـــلاة والســـلام هو وذريّته بعمارة بيت الله الحرام، ومن هذا الفرع المبارك جاء الإمام الأعظم خاتم المرسلين محمّد صـلّى الله عليه وسـلّم، وقد اختار الله تعالى من قصّـة سـيِّدنا إبراهيم عليه الصـلاة والسـلام ما يتوافق مع مقاصـد السُّـورة؛ ليثبت المؤمنين، ويُقيم الحجة على المبطلين من أهل الكتاب والمشركين.

هذه الآية المباركة تبيِّن أن الإمامة مقام عظيم؛ لما تجلبه من المصـــالح، وما تدفعه من المفاســد، ولا تنال الإمامة إلا بتوفيق الله تعالى إلى القيام بما شــرعه، وطلبها من الله تعالى للنفس والذريّة عبادة، وقد دلَّت الآية بدلالة الإشـــارة على أنها لا تنال بالوراثة والنســـب؛ لأنها لو كانت تنال بذلك لما طلبها إبراهيم الصـــلاة والســلام لذريّته، ولنالها الصــالح منهم والظالم، ودلّت الآية بالإيماء والتنبيه على أن الظلم سبب شرعيّ للحرمان من الإمامة. وفي هذا حجّة بالغة على أن محمّدًا عليه الصــلاة والســلام وأصــحابه أولى بإبراهيم عليه الصــلاة والســلام وأحقّ بالإمامة من جميع الطوائف: اليهود، والنصـارى، والمشـركين؛ لأن هذه الطوائف غارقة في الظلم والظلمات، قال العلّامة ابن عاشـــور: "وفي الآية تنبيه على أن أهل الكتاب والمشــركين يومئذ ليســوا جديرين بالإمامة؛ لاتصــافهم بأنواع من الظلم كالشــرك وتحريف الكتاب وتأويله على حســب شــهواتهم والانهماك في المعاصــي حتى إذا عرضــوا أنفســهم على هذا الوصــف علموا انطباقه عليهم. وتعليق الحكم بوصـــف الظالمين إيماء إلى علة نفي أن ينالهم عهد الله فيفهم من

العلة أنه إذا زال وصف الظلم نالهم العهد"[81].

"وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا" "ابْتَلَاه اختبره، "بِكَلِمَاتٍ" النكرة في سياق الإثبات، فهي للإطلاق مقيَّدة بوصف مقدّر بكلمات مخصوصة، أو يقال من المطلق المراد به المقيَّد كما يقال في العامّ المراد به الخاصّ، وهو أولى من تقدير وصف، وقد فسّر الإمام الطبريّ الكلمات بقوله: "وكان اختبار الله تعالى ذكره إبراهيم، اختبارًا بفرائض فرضها عليه، وأمر أمره به. وذلك هو "الكلمات" التي أوحاهن إليه، وكلّفه العمل بهن، امتحانًا منه له واختبارا"[82]. "لِلنَّاسِ" "أل" للعموم، "قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي" "من" للتبعيض، وذرية: نكرة مضافة تعمّ، "قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ" "لَا يَنَالُ" الفعل في سياق النفي يعمّ، "عَهْدِي" نكرة مضافة تعمّ، ولكنّه أُريد به الخصوص، "الظَّالِمِينَ" صفة صريحة مقترنة ب"أل" تعمّ، وفيها إيماء وتنبيه على أن الظلم مانع شرعيّ من نيل الإمامة، ومفهوم المخالفة يدلّ على أن غير الظالمين ينالهم العهد، فيكونون أهلًا للإمامة.

وأما إذا استولى الظالم على الحكم فالواجب درء فساده بما لا يفضي إلى فسادٍ مثله، قال القرطبيّ: "والذي عليه الأكثر من العلماء أن الصبر على طاعة الإمام الجائر أولى من الخروج عليه؛ لأن في منازعته والخروج عليه استبدال الأمن بالخوف، وإراقة الدماء، وانطلاق أيدي السفهاء، وشنّ الغارات على المسلمين، والفساد في الأرض"[83].

أقول: وهذا الأمر ظاهرٌ في الأزمنة التي تكون فيها القوى الظالمة أشدّ قوة، وأكثر جمعًا، فيتقوى الظالم المحلّي، بالظلمة الإقليميين والدوليين، فيفضي الخروج

---

[81] ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج707/1

[82] الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق،ج7/3

[83] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مرجع سابق، ج2/ 109

عليهم إلى فساد عريض.

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾[84].

لقد شرّف الله تعالى مكّة بما اختصّها به من المكارم، وزادها شرفًا بما يقام فيها من الطاعات، وبمَنْ أقام فيها من النبيّين، والصديقين، والشهداء، والصالحين، والأوعية الشريفة تزداد شرفًا بما يحلُّ فيها أو يتصل بها من الفضائل. وقد جعل الله تعالى البيت الحرام مثابة للناس في حجهم وعمرتهم وللصلاة فيه، ثمّ زاده شرفًا بجعله قبلة يصلون إليه.

في الآية إظهار لشرف البيت الحرام في ملّة إبراهيم عليه الصلاة والسلام التي وردت الرسالة الخاتمة موافقة لها، وفيها بيان لشيءٍ من مناقب إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بما اختصّهما الله تعالى به من عمارة البيت الحرام وتطهيره، وتهيئته للطواف، والاعتكاف، والصلاة.

وفي الآية تزكيّة لدعوة المسلمين، وقطعٌ لما يدّعيه المشركون من استقامة على ملّة إبراهيم عليه السلام، وإبطالٌ لمحدثاتهم وما يقترفونه من صنائع الجاهليّة.

"وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا" قال السمين الحلبيّ: "الأصلُ في "مَثَابة" مَثْوَبة، فَأُعِلَّ بالنقلِ والقلبِ، وهل هو مصدرٌ أو اسمُ مكانٍ قولان؟ وهل الهاءُ فيه للمبالغةِ كعَلاَّمة ونسَّابة لكثرةِ مَنْ يَثُوب إليه أي يرجع أو لتأنيث المصدرِ كمقامة أو لتأنيثِ البقعة؟ ثلاثةُ أقوال، وهل معناه من ثابَ يَثُوب أي: رَجَع، أو من الثوابِ الذي هو الجزاء؟ قولان أظهرُهما أوَّلُهما، "وَأَمْنًا" فيه وجهان، أحدُهما: أنه عَطْفٌ على "مَثَابة"، وفيه التأويلاتُ المشهورةُ: إمَّا المبالغةُ في جَعْلِه نفس المصدر، وإمَّا على حَذْفِ مضافٍ أي: ذا أَمْن، وإمَّا على وقوعِ المصدرِ موقعَ اسمِ الفاعل أي: آمِنَاً، على

[84] سورة البقرة آية (125)

سبيل المجاز كقوله: "حَرَماً آمِناً". والثاني: أنه معمولٌ لفعلٍ محذوفٍ تقديرُه: وإذ جَعَلْنَا البيتَ مثابةً فاجْعَلوه آمِناً لا يعتدي فيه أحدٌ على أحد"[85]. "لِلنَّاسِ" الناس عامّ، "وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى" الأمر للندب إن قلنا إن "مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ" المقام المخصوص، وهو كما قال ابن كثير: "المراد بالمقام إنما هو الحَجَرُ الذي كان إبراهيم عليه السلام، يقوم عليه"[86]، وللوجوب على القول بأن "مقام" نكرة مضافة إلى معرفة، فهي تعمّ جميع مقامات إبراهيم عليه الصلاة والسلام، قال السعدي: "يحتمل أن يكون المراد بذلك، المقام المعروف الذي قد جعل الآن مقابل باب الكعبة، وأن المراد بهذا، ركعتا الطواف، يستحب أن تكونا خلف مقام إبراهيم، وعليه جمهور المفسرين، ويحتمل أن يكون المقام مفردًا مضافًا، فيعمّ جميع مقامات إبراهيم في الحج، وهي المشاعر كلها: من الطواف، والسعي، والوقوف بعرفة، ومزدلفة ورمي الجمار والنحر، وغير ذلك من أفعال الحج، فيكون معنى قوله: "مُصَلًّى" أي: معبدًا، أي: اقتدوا به في شعائر الحج"[87]، والمعنى الأول أظهر.

"وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ"، وقد فسّر الإمام الطبريّ لفظ "عهِدَ ب "أَمَرَ"، وقصر معنى التطهير على التطهير من الشرك، فقال: "وَعهدنا": وأمرنا، والتطهير الذي أمرهما الله به في البيت، هو تطهيره من الأصنام، وعبادة الأوثان فيه، ومن الشرك بالله"[88]، وحمله على التطهير من كلّ رجس حسّيّ ومعنويّ أولى، قال العلّامة ابن عاشور: "المراد من تطهير البيت ما يدلّ عليه لفظ التطهير من محسوس بأن يحفظ من القاذورات والأوساخ ليكون المتعبد فيه مقبلا على العبادة دون تكدير، ومن تطهير معنوي، وهو أن يبعد عنه ما لا يليق بالقصد من بنائه من

---

[85] السمين، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، مرجع سابق، ج2/104-105، بتصرّف يسير.

[86] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ج1/416

[87] السعديّ، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، مرجع سابق، ج1/65

[88] الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق،ج3/38

الأصنام والأفعال المنافية للحق كالعدوان والفسوق، والمنافية للمروءة كالطواف عريا دون ثياب الرجال والنساء. وفي هذا تعريض بأن المشركين ليسوا أهلا لعمارة المسجد الحرام لأنهم لم يطهروه مما يجب تطهيره منه"[89]. وفعل الأمر "طَهِّرَا" ظاهره الوجوب.

"لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ"، "أل" للعموم، قال السمين الحلبيّ: "والعُكوفُ لغةً: اللزومُ واللُّبْثُ، يقال: عَكَفَ يَعْكُف ويعكِف، بالفتحِ في الماضي والضمِّ والكسرِ في المضارع، والسجودُ جمع ساجد، وعَطَفَ أحد الوصفينِ على الآخر في قوله: الطائفين والعاكفين لتباينِ ما بينهما، ولم يَعْطِفْ إحدى الصفتينِ على الأخرى في قوله: الرُّكَّعِ السجودِ، لأنَّ المرادَ بهما شيءٌ واحدٌ، وهو الصلاةُ إذ لو عَطَفَ لَتُوُهِّم أنَّ كلَّ واحدٍ منهما عبادةٌ على حِيالها، وجَمَعَ صفتين جَمْع سلامة وأُخْرَيَيْنِ جمع تكسيرٍ لأجلِ المقابلةِ، وهو نوعٌ من الفَصاحةِ"[90].

[89] ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج712/1

[90] السمين، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، مرجع سابق، ج107/2-108، بتصرّف يسير.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آَمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آَمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[91].

فقه الإمامة والاستدامة ظاهرٌ في قصّة إبراهيم عليه الصلاة السلام، ولقد تأمّلت مليًّا في هذا الفقه الشريف، واطّلعت على كثيرٍ ممّا يكتب في الفكر المعاصر في هذا المجال، وقارنتُ، فأدهشني كمال فقه الاستدامة في الإسلام وشموله لمراتب المقاصد الثلاث الضرورية والحاجيّة والتحسينيّة، كما أحزنني ما يعاني منه المسلمون من تبعيّة للفكر الوافد المشحون بالضلال المبين. قال ابن عاشور: "ومقصد إبراهيم من دعوته هذه أن تتوفر لأهل مكة أسباب الإقامة فيها فلا تضطرهم الحاجة إلى سكنى بلد آخر؛ لأنه رجا أن يكونوا دعاة لما بنيت الكعبة لأجله من إقامة التوحيد وخصال الحنيفيّة وهي خصال الكمال، وهذا أول مظاهر تكوين المدينة الفاضلة التي دعا أفلاطون لإيجادها بعد بضعة عشر قرنًا"[92].

والاستدامة من أوسع الكلمات شيوعًا في قاموس التنميّة المعاصر، وقد أضحت التنميّة المستدامة شعار المرحلة في جميع دول العالم، وكثير من برامجها غدا مفروضًا على الدول المستضعفة فرضًا. وهذا المصطلح من مبتكرات الأمم المتحدة، وقد أَفْرَغَ فيه حملتُه وحماتُه معاني تناقض أصل

[91] سورة البقرة آية (126)

[92] ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج716/1

مفهوم الاستدامة الذي بُني على الموازنة بين سدّ حاجات الناس أجمعين بالعدل والتعاون، والحفاظ على فطرة الأرض (البيئة) بما فيها؛ لتظل قادرة على تلبية احتياجات الأجيال القادمة (الذُريّة)؛ لأن فلسفة الصراع والتنافس السائدة منذ قرون قد أضرّت بالبيئة، وأهلكت الحرث والنَّسل. ولقد اصطدمت هذه الفكرة الجميلة بواقع الأنظمة المهيمنة التي تعمل على استدامة تفوُّق الأقوياء على الشعوب المستضعفة والمستنزفة، وذلك بمضاعفة فرص الأقوياء في استدامة تخلّف الضعفاء؛ لنهب ثرواتهم واتخاذهم سخريًّا. وأضحى فؤاد التنمية المستدامة فارغًا.

أما منهج أبينا إبراهيم عليه الصلاة السلام في العمل بأسباب الاستدامة؛ فإنه يحقّق الاستقامة، ويحفظ الكرامة، ويضمن السلامةَ، وطيبَ الإقامة، فانظر كيف استشرف -عليه الصلاة السلام- المستقبلَ واعتنى بالاستقرار الاقتصاديّ، والسّياسيّ للبلد الحرام، فلجأ عليه الصلاة والسلام إلى ربّه عزّ وجلّ؛ ليُهيّئ لساكني مكّة أسباب الدوام على الطاعات؛ فلا تتأتى الاستدامة على كمال الطاعة، إلا بطيب الإقامة، وسلامة الجماعة. قال العلّامة الرازيّ: "المطلوب من الله تعالى هو أن يجعل البلد آمناً كثير الخصب، وهذا مما يتعلق بمنافع الدنيا، فكيف يليق بالرسول المعظّم طلبها؟

والجواب عنه من وجوه، أحدها: أن الدنيا إذا طلبت؛ ليتقوى بها على الدين، كان ذلك من أعظم أركان الدين، فإذا كان البلد آمناً وحصل فيه الخصب تفرغ أهله لطاعة الله تعالى، وإذا كان البلد على ضدّ ذلك

كانوا على ضدّ ذلك. وثانيها: أنه تعالى جعله مثابة للناس، والناس إنما يمكنهم الذهاب إليه إذا كانت الطرق آمنة والأقوات هناك رخيصة. وثالثها: لا يبعد أن يكون الأمن والخصب مما يدعو الإنسان إلى الذهاب إلى تلك البلدة، فحينئذ يشاهد المشاعر المعظمة والمواقف المكرمة فيكون الأمن والخصب سبب اتصاله في تلك الطاعة"[93].

ولقد أذاق المغامرون شعوبهم لباس الخوف، والجوع، والفقر، والمرض، والدّمار؛ لقلّة فقههم بوظائف الإمامة، وسوء إدارتهم لأسباب الاستدامة.

إن الله جلّ جلاله هو مالك الملك، والخير كلّه بيده، يختصّ بفضله ورحمته من يشاء. ومن كان أعلم بالله تعالى كان أحسن رجاء، وأعظم دعاء والتجاء. وها هو الإمام الحكيم عليه أفضل الصلاة والتسليم يدعو ربّه أن يرزق أهل البلد الحرام رزقًا حسنًا وسلامًا وأمنًا، فما أرشده من فقهِ استدامة؛ لعمارة الأرض.

وفي الآية تذكيرٌ للعرب بمننه ونعمه كما ذكَّر الله تعالى من قبلُ بني إسرائيل بنعمه ومننه؛ لعلّهم يتذكّرون ويشكرون.

"وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آَمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ" "رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آَمِنًا" اجْعَلْ: دعاء، قدّم طلب الأمن؛ لأنه أدعى للاستقرار والاستمرار من رزق الثمرات، وفي سورة "قريش" أخَّر دفع الخوف، وقدّم الامتنان بالإطعام من جوع؛ لأن الإطعام من الجوع أنفع وأحفظ للأنفس، وضرّ الجوع أشدّ من ضرّ الخوف، والله تعالى أعلم.

[93] انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، مرجع سابق، ج48/4

"وَارْزُقْ" دعاء، "أَهْلَهُ" نكرة مضافة تعمّ، "مِنَ الثَّمَرَاتِ" من للتبعيض، والثمرات عامّ، "مَنْ آَمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ" " مَنْ" موصول عامّ وهو بدل من "أهل" بدل بعض من كل، وبدل البعض مخصص لعموم المبدل منه.

"قَالَ وَمَنْ كَفَرَ" الاسم الموصول يعمّ، "فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ" عذاب نكرة مضافة تعمّ. وسنّة الله تعالى في الإمداد بالأرزاق العامّة عامّة للمؤمن والكافر، فمن شكر زاده، ووفقه، ومن كفر خاب وخسر خسرانًا مبينًا.

ذكر الله تعالى في خمس آيات (في الآيتين السابقتين والثلاث التي تليها) أصول المشروع الإبراهيمي في جزيرة العرب، المشروع الذي اختاره الله تعالى؛ ليكون القلب النابض، ومركز الإشعاع، والنواة الصلبة لمشروع قيادة البشرية كافّة، فمبنى هذه النواة وهذا المركز على تلك الأصول، وهي:

الأول: بناء المسجد الحرام، وجعله مثابة للناس وأمنًا.

الثاني: تهيئة البلد الأمين لساكنيها وزائريها.

الثالث: وجود الذريّة الصالحة التي اجتمعت عليها الأمّة المسلمة.

الرابع: الإسلام: الدين القيِّم.

الخامس: بعث الإمام الأعظم صلى الله عليه وسلّم، وقد ذكر له أربع وظائف جامعة، وهي:

الأولى: تلاوة الآيات على الناس؛ لوصل الأسماع والقلوب بكلام الله تعالى علّام الغيوب.

الثانية: تزكية الأمّة: بتطهير النفوس من الخبائث، وتنمية المكارم، وبناء شعب الإيمان والإحسان فيها.

الثالثة: تعليم الكتاب: فقه النصّ أحكامًا وأخبارًا.

الرابع: تعليم الناس الحكمة: تعليم الأمة كيفيّة تنزيل الأمور منازلها، ويدخل فيه فقه التنزيل على الواقع والاستعداد الحكيم لحوادث المستقبل، ومبناه على فقه سنن الله تعالى الشرعيّة والكونيّة، وفقه الواقع والمتوقّع.

وما اختلّ أصلٌ ممّا سبق ذكره إلا اختلّ شيء من هذا النظام والمشروع العالميّ الإسلاميّ وأخلّ بمساره.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[94].

"وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ"

"وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ" "الْقَوَاعِدَ" "أل" للعموم، "مِنَ الْبَيْتِ" البيت العتيق المعهود، والجار والمجرور مخصّص لعموم القواعد، والمسجدُ هو عمود الحياة المدنيّة في الإسلام، ففيه تقام الصلاة عمود الدين، وتؤدّى فيه الوظائف العليا في الأمة: تلاوة الآيات، والتزكية، وتعليم الأمّة الكتابَ والحكمة.

"رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ" "تَقَبَّلْ" دعاء. وما أنفع العمل الصالح حين يكون مشفوعًا بالدعاء والتضرُّع والاستكانة لربّ العالمين، ومهما عظمت الأعمال الطيّبة، فإنها لا تغني شيئًا إن لم يتقبّلها الله السَّمِيعُ الْعَلِيمُ.

"رَبَّنَا، وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ"، في الآية بيان بأن دين إبراهيم وذريّته الإسلام، فقد دعا إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بالثبات على الإسلام، وفيها الآية بشارة بدخول

[94] سورة البقرة آية (127-129)

أهل مكّة في الإسلام، وإشارة إلى شرف هذه الذريّة الكريمة الوارثة التي يبعث فيها الرسول الخاتم عليه الصلاة السلام، ويكون لها فضل اتباعه ونصرته، وتنشأ منها خير أمّة أخرجت للنّاس. إن تهيئة الوسائل المعينة على استدامة الطاعة واستمرارها، والوقاية من أسباب الانقطاع، سنّة من سنن الأنبياء، ومن أعظم هذه الوسائل والأسباب إصلاح الذريّة، فهي وسيلة جليلة لإنشاء الأمم المسلمة. فإذا أراد الدعاة إصلاح الأمّة فينبغي عليهم الاجتهاد وإفراغ الوسع في إصلاح ذريّاتهم، فإن استجابوا فبفضل الله تعالى ورحمته، وإن أبَوا، فقد نصحوا، وأدّوا ما يجب، والله يختصّ برحمته من يشاء. إنما اللوم على من فرّط.

"اجْعَلْنَا، أَرِنَا، تُبْ": صيغة "افعل" للدعاء، "مِنْ ذُرِّيَّتِنَا" من: بيانية؛ لأن الدعاء بصلاح جميع الذريّة هو الصل، ولا يتعارض مع العلم بوقوع بعضهم في الكفر، ويجوز أن تكون للتبعيض، وذريّة نكرة مضافة تعمّ، "أُمَّةً" نكرة في سياق الإثبات للإطلاق، ومُسْلِمَةً قيدٌ لها. "مَنَاسِكَنَا": نكرة مضافة تعمّ عمومًا عرفيًّا، "وأصل المنسك في كلام العرب: الموضع المعتاد الذي يعتاده الرجل ويألفه، يقال: "لفلان منسك"، وذلك إذا كان له موضع يعتاده لخير أو شر. ولذلك سمّيت "المناسك" "مناسك"؛ لأنها تعتاد، ويتردد إليها بالحج والعمرة، وبالأعمال التي يتقرب بها إلى الله"[95].

[95] الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق،ج80/3

"رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" حين تتمكّن الربّانيّة في القلوب تفيض رجاء، ودعاء، لقد عمل إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام على تهيئة الأسباب الروحيّة والمادّية للتمكين للإسلام، وعَلَتْ همّتهما وامتدت؛ لتبلغ الأجيال اللاحقة على مدى القرون المديدة، وقد أجاب الله دعوتهما بعد آلاف السنين! وفي ذلك عبرة لكلّ عَجُول! فقد بعث الله تعالى محمّدًا صلّى الله عليه وسلّم؛ لهداية الأمّة التي أرادها إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وغيرها من الأمم إلى قيام الساعة.

"ابْعَثْ": دعاء، "فِيهِمْ": حرف الظرفيّة "في" يدلّ على شدّة المداخلة والمخالطة والمعايشة، "رَسُولًا": هذا للفظ الكريم مقيّد بما بعده من الصفات، وهي:

- الصفة الأولى: أن يكون "منهم" أي: من تلك الذريّة الطيبة والأمّة المسلمة، ومفهومه ألّا يكون من غيرهم؛ لأنه أدعى لاستجابتهم، فلسانه لسانهم، ونسبه معلوم، وسيرته معهودة، وخصاله محمودة، وشرفه شرف لهم، فلا تحملهم الحميَّة والعصبيّة على معاداته.

- الصفة الثانية: قوله تعالى: "يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ" جملة "يتلو" وما عطف عليها صفة للرسول: رسولًا تاليًا ومعلّمًا ومزكّيًا.

"آيَاتِكَ" نكرة مضافة تعمّ الآيات المنزلة عليه، "الْكِتَابَ" "أل" للعهد وهو القرآن الكريم، "وَالْحِكْمَةَ" السُّنة، فإن سنته عليه الصلاة والسلام هي البيان الأوفى للكتاب، فاستجاب الله تعالى دعوتهما ببعث محمد صلى الله عليه وسلم فقام بهذه الوظائف خير قيام، وأنشأ بدعوته خير أمة أخرجت للناس، "إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ"، قال محمّد رضا: "والسرّ في ذكر هذين الوصفين هنا إزالة ما ربما يتعلق بالذهن، أو يسبق إلى الوهم، من أن هذه الأمور التي دعي بها للعرب منافية

لطبائعهم، بعيدة من أحوالهم ومعايشـــهم، فإنهم جمدوا على بداوتهم، وأَلِفُوا غلظتهم وخشـــونتهم، فهم أعداء العلم والحكمة، خصـــماء التهذيب والتربية، لا يخضـــعون لنظام، ولا يؤخذون بالأحكام، ولا اســـتعداد فيهم للمدنية والحضـــارة، التي هي أثر تعليم الكتاب والحكمة، وتزكية أفراد الأمة، فكان يتوقع أن يقول قائل: من يقدر أن يغير طباع الأمة المعروفة بالخشونة والقسوة، فيجعلها من أهل العلم والمدنية والحكمة؟ لولا أن علم أن المدعو والمســـئول هو العزيز الذي لا مرد لأمره، والحكيم الذي لا معقب لحكمه"[96].

[96] رضا، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، مرجع سابق، ج389/1

﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآَخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[97].

لقد بيَّن الله تعالى في هذه القصّة المباركة بالحجج البالغة أن الإسلام هو ملّة إبراهيم صلّى الله عليه وسلّم، وأن الإسلام هو الدين الذي وصّى به إبراهيمُ بنيه، ويعقوبُ عليهم الصلاة والسلام جميعًا.

فلم تُبقِ الآيات البيّنات ملجأ ولا مغارات ولا مُدَّخلًا لأحدٍ من اليهود والنصارى ومشركي العرب الذين يزعمون اتباع إبراهيم عليه السلام، فقد أقامت عليهم الحجّة! وبيَّنت المحجّة، ولم يَبقَ على عقول المكابرين والمعاندين إلا غشاوةُ السَّفه! ومن يرغب عن الإسلام إلا السفهاء! فالسَّفهاء هم الراغبون عن هذه الملّة الكريمة، والسَّفهُ هو سبب إعراض مَن أعرض عن الإسلام. والسفه وحده هو الحامل لهم على بثّ الشبهات؛ حتى يقولوا: ما ولّاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟

"وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ" "مَنْ": اسم استفهام عامّ، قال السمين: "استفهامٍ بمعنى الإنكار فهو نفيٌ في المعنى، ولذلك جاءَتْ بعده "إلاَّ" التي للإيجابِ، "نَفْسَهُ" المختارُ أَنْ يكونَ مفعولاً به؛ لأنَّ ثعلبا والمبرِّد حكيا أنَّ سَفِه بكسر "الفاء" يتعدَّى بنفسه كما يتعدَّى سَفَّهَ بفتح الفاء والتشديد، وحُكي عن أبي الخطاب أنها لغةٌ"[98]. وقول الزمخشريّ في فعل "سفِه" يحتمل إرادة التعدّي بنفسه،

---

[97] سورة البقرة آية (130-131)

[98] السمين، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، مرجع سابق، ج120/2

والتضمين، فقد قال: "سَفِهَ نَفْسَهُ امتهنها واستخفّ بها وأصل السفه: الخفة"[99]. ونظر الإمام الطبريّ في لفظ السّفه نظرًا مقصديًّا بديعًا، فقال: "معنى "السفه"، الجهل فمعنى الكلام: وما يرغب عن ملة إبراهيم الحنيفيّة، إلا سفيه جاهل بموضع حظ نفسه فيما ينفعها، ويضرها في معادها"[100]، "وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآَخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ" "الصَّالِحِينَ" صفة محلاة ب"أل" تعمّ. "إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ" أَسْلِمْ: أمر للوجوب، "قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ" "أل" للاستغراق، يعم كلّ العوالم.

"وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ" وَصَّى" الوصيّة: أمرٌ؛ لأن وصيّة الرسل عليهم لسلام تشريع، وقد أكّد هذا الأمر، بما بعده، "بني": نكرة مضافة تعمّ، "فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ"، لا ناهية وإلا حاصرة، وهو استثناءٌ مفرَّغٌ من عموم الأحوالِ[101]، والواو حالية وما بعدها مخصّص لذلك العموم المقدّر، والمعنى لا تموتن في حال من الأحوال إلا في حال كونكم مسلمين، وهذا أمر بالثبات على الإسلام.

---

[99] انظر: الزمخشري، الكشاف، مرجع سابق، ج189/1

[100] الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق،ج90/3

[101] انظر الدر المصون ج127/2

﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[102].

يُطلعنا الله علّام الغيوب على مشهد جليل، ألا وهو مشهد يعقوب عليه الصلاة والسلام ساعة احتضاره، وهو يلقّن أولاده الثبات على الإسلام، وفي هذا التلقين بيان فضل من بالغ في أداء الأمانة حتى أتاه اليقين، لقد كان الدرس الأخير خالصًا لتثبيت بنيه على الإسلام، فلم يمُت إلا وقد اطمأنّ قلبه برسوخ عقيدة التوحيد في قلوبهم؛ العقيدة التي توارثتها الذريّة الطيبة أمّة بعد أمّة، فلم يزغ عنها إلا الهالكون. لقد كانت الساعة الأخيرة من حياة يعقوب عليه السلام عامرة بالدعوة إلى الإسلام لله ربّ العالمين، فما أحسنها من خاتمة! والمقصد من هذا المشهد تكذيب اليهود والنصارى في دعواهم أن إبراهيم وولده يعقوب عليهما السلام كانا على ملتهم[103].

"أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي"، "أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ" أم للإضراب الانتقالي وتتضمّن الإنكار على الذين يفترون على يعقوب عليه السلام أنه كان على غير الإسلام (يهوديًّا أو نصرانيًّا)، فالله تعالى يصوّر لنا في هذه الآية مشهدًا عظيمًا مهيبًا حين حضور ملك الموت لقبض روح يعقوب عليه السلام؛ ليُبيّن لنا خاتمة أعمال

---

[102] سورة البقرة آية (133-134)

[103] انظر: الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق،ج3/ 98

يعقوب التي مات عليها، وفي هذا أبلغ الردّ على افتراءات اليهود والنصارى. "بَنِيهِ" نكرة مضافة تعمّ جميع بنيه، "مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي" الاستفهام للاطمئنان والتثبيت، و"ما" استفهام يعمّ، "قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ" وردت الإجابة بأسلوب الإطناب ليناسب مقام التطمين والتثبيت، "آبَائِكَ" نكرة مضافة تعمّ جميع الآباء، وخُصّص العموم بالبدل: "إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ"، **وَإِنَّمَا أُعِيدَ الْمُضَافُ فِي قَوْلِهِ: وَإِلَهَ آبائِكَ لِأَنَّ إِعَادَةَ الْمُضَافِ مَعَ الْمَعْطُوفِ عَلَى الْمُضَافِ إِلَيْهِ أَفْصَحُ فِي الْكَلَامِ وَلَيْسَتْ بِوَاجِبَةٍ، وَإِطْلَاقُ الْآبَاءِ عَلَى مَا شَمِلَ إِسْمَاعِيلُ وَهُوَ عَمٌّ لِيَعْقُوبَ إِطْلَاقٌ مِنْ بَابِ التَّغْلِيبِ وَلِأَنَّ الْعَمَّ بِمَنْزِلَةِ الْأَبِ"**[104]. وفي هذا التفصيل في التعريف بالله تعالى تطمين لقلب أبيهم بحسن قبولهم لوصيّته ووصيّة آبائه إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، وقد أكّدوا حديثهم بالتصريح بالتوحيد "إِلَهًا وَاحِدًا"، ثمّ ختموا إقرارهم بالجملة الاسميّة الدّالّة على الثبوت، والدوام، والاستقرار: "وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ"، والمفهوم مسلمون له لا لغيره، وفي هذا الإقرار إرضاء لربّ العالمين، وتطييب لبال أبيهم؛ لأن هذا الأمر من أعظم ما يُدخل السّرور على قلب أبيهم في تلك الساعة؛ ليَفِدَ على ربّه، وهو يحمل شهادة التوحيد التي ربّاهم عليها، وفارقهم عليها، فهذا من أعظم البرّ بالأب المودِّع. وفي هذا تعريض باليهود والنصارى العاقّين والعاصين بمخالفتهم وصيّة آبائهم وأئمّتهم.

[104] ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج733/1

"تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ" :ما" موصول يعمّ، "وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ" "لا" نافية والفعل بعدها يعمّ، "ما" الموصول يعمّ، قال الإمام الطبريّ: "يعني تعالى ذكره. بقوله: "تلك أمة قد خلت"، إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، وولدهم. فإنهم أمة –ويعني: ب"الأمة" في هذا الموضع: الجماعةَ والقرنَ من الناس– قد خلت: مضت لسبيلها. وإنما قيل للذي قد مات فذهب: "قد خلا"، لتخلِّيه من الدنيا وانفراده، عمّا كان من الأنس بأهله وقرنائه في دنياه"[105]. وفي الآية قطع لأمانيّ أهل الكتاب ومن شابههم في شفاعة هؤلاء الأسلاف الكرام لمن خالف ملّتهم، نقل العلامة محمّد رشيد عن شيخه محمد عبده "جاءت هذه الآية الكريمة بعد الكلام عن وصية إبراهيم لبنيه وإسماعيل وإسحاق ويعقوب لبنيهم؛ استدراكًا على ما عساه يقع في أذهان ذراري هؤلاء الأنبياء الكرام – عليهم الصلاة والسلام – من أن هذا السلف الذي له عند الله هذه المكانة يشفع لهم، فينجون ويسعدون يوم القيامة بمجرد الانتساب إليهم"[106].

[105] الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق،ج100/3 بتصرّف يسير.

[106] رضا، تفسير المنار، مرجع سابق، ج394/1

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[107].

قاتل اللهُ اليهود والنصارى، ما أشدّ كفرهم وما أخبثَ مكرَهم! فلم يكتفوا بمخالفة دين الله تعالى، ومعاداة رسله، بل يأمرون المسلمين باتباعهم على الكفر والضلال المبين؛ ليهتدوا!

وما زالت تلك دعواهم لنا! الدعوة إلى "الاهتداء" بمناهجهم وأفكارهم وفلسفاتهم؛ لنتقدّم، ونتمدّن، ونتحرّر! بل ويفرضونها فرضًا على حكوماتنا، وقد صَغَت إليهم أفئدة الذين لا يؤمنون، واقتدت بهم كثيرٌ من النخب المستغربة السياسيّة والإعلاميّة والفكريّة وغيرها، فصار بعض أبناء جلدتنا يحاربون دين الله تعالى، ويعملون على إطفاء نوره كاليهود والذين أشركوا.

ولفظ "كونوا" يعني التحوّل من حال إلى حال أخرى، فهو مسخٌ شامل، واستبدال دين بدين، وعليه فكلّ دعوات التعايش والتسامح التي ينادون بها إنما هي استدراج. ولقد كشف الله تعالى لنا كيد الكافرين، وعلّمنا كيف ندحضه بالحجة البالغة؟ فأمر المسلمين بالولاء التامّ لملّة إبراهيم عليه السلام ملّة الإسلام، والبراءة الشاملة من اليهودية الظالمة والنصرانية الضالّة. وحذّرنا أشدّ التحذير من اتباع اليهود والنصارى، ومع ذلك نجد كثيرًا من المسلمين يقتفون سَنن اليهود والنصارى حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ، وممّا نقله صاحب تفسير المنار عن شيخه قوله: "وهؤلاء المسلمون على حفظ كتابهم في الصدور والسطور يعملون

[107] سورة البقرة آية (135-136)

باسم الدين أعمالًا يظنها الجاهلون بدينهم أعظم أركان الدين، ولولا أن القرآن محفوظ وسنة الرسول وسيرة السلف الصالح مدونتان في الكتب لنسينا الأصل واكتفينا بهذه البدع"[108]، أقول: إن هذا لشرّ عظيم، وضرر جسيم، وأخبث هؤلاء المبدّلين أئمةُ الباطنيّة، ومن قاربهم من الغلاة، وأما العامّة من أهل السنّة الذين اتبعوا مَن ابتدعوا، فتركوا شيئًا ممّا شرع الله تعالى، وأحدثوا في الدين ما ليس منه، فخلطوا، وفرّطوا، إن عامّة هؤلاء يحبّون الله تعالى، ورسوله عليه الصلاة والسلام، ويمقتون اليهود والنصارى، ويحبون أن ينصروا الإسلام، ولديهم غيرة صادقة على حرمات الله تعالى، ولكن قلّ علمُهم، فقلّدوا من ضلّ، وأضلّ، نسأل الله تعالى أن يتولانا وإياهم بعفوه، ورحمته، وأن يمنّ علينا وعليهم باتباع أحسن ما أنزل الله تعالى.

"وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا" دعوى باطلة في ربط الاهتداء بالتهوّد والتنصّر، فقال اليهود للمسلمين: كونوا هودًا تهتدوا، وقال لهم النصارى: كونوا نصارى تهتدوا! والفريقان يزعمان أنهما على ملّة إبراهيم عليه السلام، وهما مختلفان أشدّ الاختلاف، "وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ". "كُونُوا" أمر إرشاد بزعمهم، فردّ الله تعالى عليهم: "قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا" فأمر الله تعالى رسولَه عليه الصلاة والسلام بقول هذه الحجة؛ لإبطال دعوى الفريقين: "قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا" قُلْ" أمر إيجاب، "بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا" ملّة منصوب بفعل مقدّر: بل نتبعُ ملّة إبراهيم عليه السلام، وهي ملّة الإسلام، "وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ" فيها تعريض باليهود والنصارى بأنهم مشركون، فأنى لهم هداية غيرهم؟ و"الْمُشْرِكِينَ" صفة صريحة محلاة ب"أل" تعمّ.

"قُولُوا آَمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ

[108] رضا، تفسير المنار، مرجع سابق، ج396/1

وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ"، ثمّ أمر الله تعالى محمّدًا عليه الصلاة والسلام وأصحابه بالإيمان بالله تعالى وبما جاءت به جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام، فكلّهم على الإسلام، وبهذا تظهر جليًّا مفارقة دين المسلمين لديانة اليهود والنصارى. "قُولُوا" أمر وجوب، "ما" موصول يعمّ في المواطن الأربعة، و"الْأَسْبَاطِ، النَّبِيُّونَ" "أل" للاستغراق، قال ابن عاشور:" وَوَاحِدُ الْأَسْبَاطِ سِبْطٌ- بِكَسْرِ السِّينِ وَسُكُونِ الْبَاءِ- وَهُوَ ابْنُ الِابْنِ أَيِ الْحَفِيدُ"[109]، وقيل: وأولاد البنات أيضًا[110]. "لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ" "لَا نُفَرِّقُ": لا نافية الفعل في سياق النفي يعمّ، "أَحَدٍ" نكرة في سياق النفي تعمّ، والمعنى نؤمن بالرسل جميعًا، ولا نفرّق بين أحدٍ منهم كما فرّقت اليهود والنصارى، فقد كفرت اليهود بعيسى وبمحمّد عليهما الصلاة والسلام، وكفرت النصارى بمحمّد عليه الصلاة والسلام. "وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ" الجملة الاسميّة تدلّ على الثبوت، والدوام، والاستقرار: "وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ"، والمفهوم مسلمون لله تعالى لا لغيره، وفيها تعريض باليهود والنصارى.

اللهم أعلِ لواء الحقّ، وامحق الباطل وحزبه.

---

[109] ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج732/1

[110] الجزري، المبارك بن محمد، النهاية في غريب الحديث والأثر، المكتبة العلمية - بيروت، 1979م، ج2/ 840

﴿فَإِنْ آَمَنُوا بِمِثْلِ مَا آَمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾[111].

في الآية الأولى تكريم وتشريف من الله العليّ العظيم لعباده المؤمنين، فقد رفع الله تعالى قدرهم؛ إذ أنزلهم منزلة أئمة الهدى، فمن اقتدى بهداهم فقد اهتدى، ومن تولّى عن سبيلهم، فهو في شقاق، والله القويّ العزيز متكفلٌ بدفعه، قال العلّامة السعديّ: "وقد أنجز الله لرسوله وعده، وسلطه عليهم حتى قتل بعضهم، وسبى بعضهم، وأجلى بعضهم، وشرّدهم كل مُشرّد. ففيه معجزة من معجزات القرآن، وهو الإخبار بالشيء قبل وقوعه، فوقع طبق ما أخبر"[112]. ثمّ دعا الله تعالى المؤمنين إلى لزوم صبغة الله تعالى والثبات على دينه وفطرته.

"فَإِنْ آَمَنُوا بِمِثْلِ مَا آَمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا"، قال العلّامة ابن عاشور: "أعلنوا دينكم، واجهروا بالدعوة إليه، فإن اتبعكم الذين قالوا: "كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى"، فإيمانهم اهتداءٌ، وليسوا قبل ذلك على هدى خلافًا لزعمهم أنهم عليه من قولهم: "كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا"، فدلّ مفهوم الشرط على أنهم ليسوا على هدى ما داموا غير مؤمنين بالإسلام. وجاء الشرط هنا بحرف إنْ المفيدة للشكّ في حصول شرطها إيذانًا بأن إيمانهم غير مرجو"[113]. "بِمِثْلِ مَا آَمَنْتُمْ بِهِ"، معنى لفظ "مثل": نفس الشيء وذاته، كأنه قال: فإن آمنوا بنفس ما آمنتم به، وتأتي مثل ويراد بها الشيء نفسه، قال الشنقيطيّ: "وَالْمُرَادُ بِالْمِثْلِ الذَّاتُ كَقَوْلِ الْعَرَبِ: مِثْلُكَ لَا يَفْعَلُ هَذَا، يَعْنُونَ أَنْتَ لَا يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَفْعَلَ هَذَا، وَنَظِيرُهُ مِنْ إِطْلَاقِ الْمِثْلِ وَإِرَادَةِ الذَّاتِ:

---

[111] سورة البقرة آية (137-138)

[112] السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، مرجع سابق، ج68/1

[113] ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج740/1

"وَشَـهِدَ شَـاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْـرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ"، أَيْ: عَلَى نَفْسِ الْقُرْآنِ لَا شَـيْءٍ آخَرَ مُمَاثِلٍ لَهُ، وَقَوْلُهُ:"كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ" أَيْ: كَمَنْ هُوَ فِي الظُّلُمَاتِ"[114].

"وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِـقَاقٍ"، فإن أعرضـوا عن الإسـلام، فهم في شـقاق ومحادّة وتمرُّد، "فَسَـيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّـمِيعُ الْعَلِيمُ"، هذا وعدٌ من الله بتمكين نبيه صـلى الله عليه وسـلم منهم، وقد سـلطه عليهم ونصـره. ومفهوم المخالفة: وإن لم يتولّوا فليسوا في شقاق، وهم منكم لهم ما لكم.

"صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ" انتصاب "صِبْغَةَ اللَّهِ" عَلَى الْإِغْرَاءِ أَيِ: الزَمُوا ذَلِكَ[115]، والإغراء أمرٌ، وهو يدلّ على وجوب لزوم صـبغة الله تعالى، وهي ملّة الإسلام. قال العلّامة الزمخشريّ: "وهي – أي الصبغةُ – مِنْ صَبَغَ كالجِلْسَـة من جَلَسَ، وهي الحالَةُ التي يقع عليها الصَّـبْغُ، والمعنى تطهيرُ الله؛ لأنَّ الإيمانَ يُطَهِّرُ النفوسَ، والأصـلُ فيه أنَّ النصـارى كانوا يَغْمِسـون أولادَهم في ماء المَعْمودِيَّةِ، ويقولون: هو تطهيرٌ لهم، فَأُمِرَ المسلمون أَنْ يقولوا: آمنَّا وصَبَغَنا الله صِبْغَةً لا مثلَ صِبْغَتِكم، وإنَّما جيء بلفظِ الصِّبْغَةِ على طريقِ المشاكلةِ"[116]. "وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِـبْغَةً": الاسـتفهام عامّ، يتضـمن معنى النفي، فلا أحد أحسـن من الله صبغة، "وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ"، مستمرون ثابتون على عبادته، ومفهومه: عابدون له لا لغيره.

[114] الشنقيطي، الأضواء، مرجع سابق، ج 2/ 442

[115] انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ج450/1

[116] انظر: الزمخشري، الكشاف، مرجع سابق، ج196/1

﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ * أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[117].

يُعَلِّم الله تعالى عباده المؤمنين المحاجّة بالتي هي أحسن، ومنهج المحاجّة في القرآن الكريم مبنيٌّ على الحقّ والعدل في التعامل مع الخصوم، والمطالبة بالحجج والبراهين، ونبذ الظلم والدعاوى الباطلة، قال العلّامة السعديّ: "المحاجّة هي: المجادلة بين اثنين فأكثر، تتعلق بالمسائل الخلافية؛ حتى يكون كلٌّ من الخصمين يريد نصرة قوله، وإبطال قول خصمه، فكلّ واحد منهما، يجتهد في إقامة الحجة على ذلك، والمطلوب منها أن تكون بالتي هي أحسن، بأقرب طريق يردُّ الضالّ إلى الحقّ، ويقيم الحُجّة على المعاند، ويوضّح الحقّ، ويبيّن الباطل، فإن خرجت عن هذه الأمور، كانت مماراة، ومخاصمة لا خير فيها، وأحدثت من الشرّ ما أحدثت.

فكان أهل الكتاب، يزعمون أنهم أولى بالله من المسلمين، وهذا مجرّد دعوى، تفتقر إلى برهان ودليل. فإذا كان ربّ الجميع واحدًا، ليس ربًّا لكم دوننا، وكلّ منا ومنكم له عمله، فاستوينا نحن وإيّاكم بذلك. فهذا لا يوجب أن يكون أحد الفريقين أولى بالله من غيره؛ لأن التفريق مع الاشتراك في الشيء، من غير فرق مؤثر دعوى باطلة، وتفريق بين متماثلين، ومكابرة ظاهرة. وإنما يحصل التفضيل بإخلاص الأعمال الصالحة لله وحده، وهذه الحالة وصفُ المؤمنين وحدهم،

[117] سورة البقرة آية (139-141)

فتعيّن أنهم أولى بالله من غيرهم؛ لأن الإخلاص هو الطريق إلى الخلاص، فهذا هو الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، بالأوصاف الحقيقيّة التي يسلمها أهل العقول، ولا ينازع فيها إلا كلّ مكابر جهول، ففي هذه الآية، إرشاد لطيف لطريق المحاجة، وأن الأمور مبنيّة على الجمع بين المتماثلين، والفرق بين المختلفين"[118].

"قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ" الأمر للوجوب، والاستفهام للإنكار والتوبيخ، "وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ" أعمال نكرة مضافة تعمّ، "وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ" مفهومه مخلصون له لا لغيره، وفيه دليل على جواز قول: أنا مخلص لله ديني، بريء من كل شرك؛ لأن المقام مقام محاجّة، ومجادلة، ودعوة إلى التوحيد، ونبذ للشّرك، فقوله تعالى: "وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ" مخصّص للنّهي عن تزكية النفس في قوله تعالى: "فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى" فالفعل في سياق النهي للعموم، ويمكن القول: إن المنهي عنه التزكيّة على سبيل المدح والتفاخر أو على ادعاء العصمة وتبرئة النفس من كلّ ذنب، فلما اختلف المقامان، اختلف الحكم. والله تعالى أعلم.

"أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى"، " أَمْ تَقُولُونَ": "أم" يجوز أن تكون المتصلة والمعادلة بين قوله تعالى: "أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ"، "أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ"، قال السمين: "فالاستفهامُ عن وقوعِ أحدِ هذين الأمْرَيْن: المحاجَّةِ في اللهِ او ادِّعاءٍ على إبراهيمَ ومَنْ ذُكِرَ معه اليهوديَة والنصرانيةَ، وهو استفهامُ إنكارٍ وتوبيخٍ كما تقدَّم فإنَّ كِلا الأمرين باطلٌ"[119]. ويجوز أن تكون"أم" منقطعة، والكلام مستأنف، "أم" بمعنى بل والهمزة، وقد حسّن العلّامة أبو حيّان أن تكون أم منقطعة، فقال: "والأحسنُ أن

[118] السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، مرجع سابق، ج69/1

[119] انظر: السمين، الدر المكنون، مرجع سابق، ج146/2

تكونَ "أم" في القراءتين معًا (أم تقولون بالتاء، وأم يقولون بالياء) منقطعةً، وكأنه أنكرَ عليهم مُحاجَّتَهم في الله، ونسبة أنبيائِه لليهودية والنصرانية، وقد وَقَع منهم ما أَنْكَرَ عليهم، ألا ترى إلى قولِه: ﴿قُلْ يا أهل الكتاب لِمَ تُحَآجُّونَ في إِبْرَاهِيمَ﴾[120] الآيات، وإذا جَعَلْناها متصلةً كان ذلك غيرَ متضمِّنٍ وقوعَ الجملتين، بل إحداهما، وصارَ السؤالُ عن تعيينِ إحداهما، وليس الأمرُ كذلك إذ وقعا معًا"[121].

"وَالْأَسْبَاطَ" "أل" للعموم، "قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ" "قل" أمر لإقامة الحجة، والاستفهام للإنكار والتوبيخ، "وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ" "من" للاستفهام لفظ عامّ، والاستفهام متضمن معنى النفي، و" مِمَّنْ" مَن: اسم موصول يعمّ، "وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ" "عن ما": ما موصول عامّ، وفي الآية إبطال لدعاوى اليهود والنصارى وتفنيد، وفيها وعيد وتهديد.

"تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ" "ما" موصول يعمّ، "وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ" "لا" نافية والفعل بعدها يعم، "ما" الموصول يعمّ، يختم الله هذه المحاجّة بين المسلمين وأهل الكتاب بذكر قانون الجزاء العادل أن لكلّ نفس ما كسبت، وعليها ما اكتسبت، وأن السلف الصالح لا يحمل أوزار الخلف الطالح؛ ليحيا من حيي عن بيّنة ويهلك من هلك عن بيّنة، ولا تزر وازرة وزر أخرى.

وقد أتممت تفسير الجزء الأول بفضل الله تعالى في آخر يوم من رمضان (1442هـ)، بعد صلاة العصر.

والحمد لله ربّ العالمين، "رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ" "رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ"، وصلى الله وسلم

---

[120] سورة آل عمران آية (65)

[121] أبو حيان، البحر المحيط، مرجع سابق، ج660/1

على محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.